

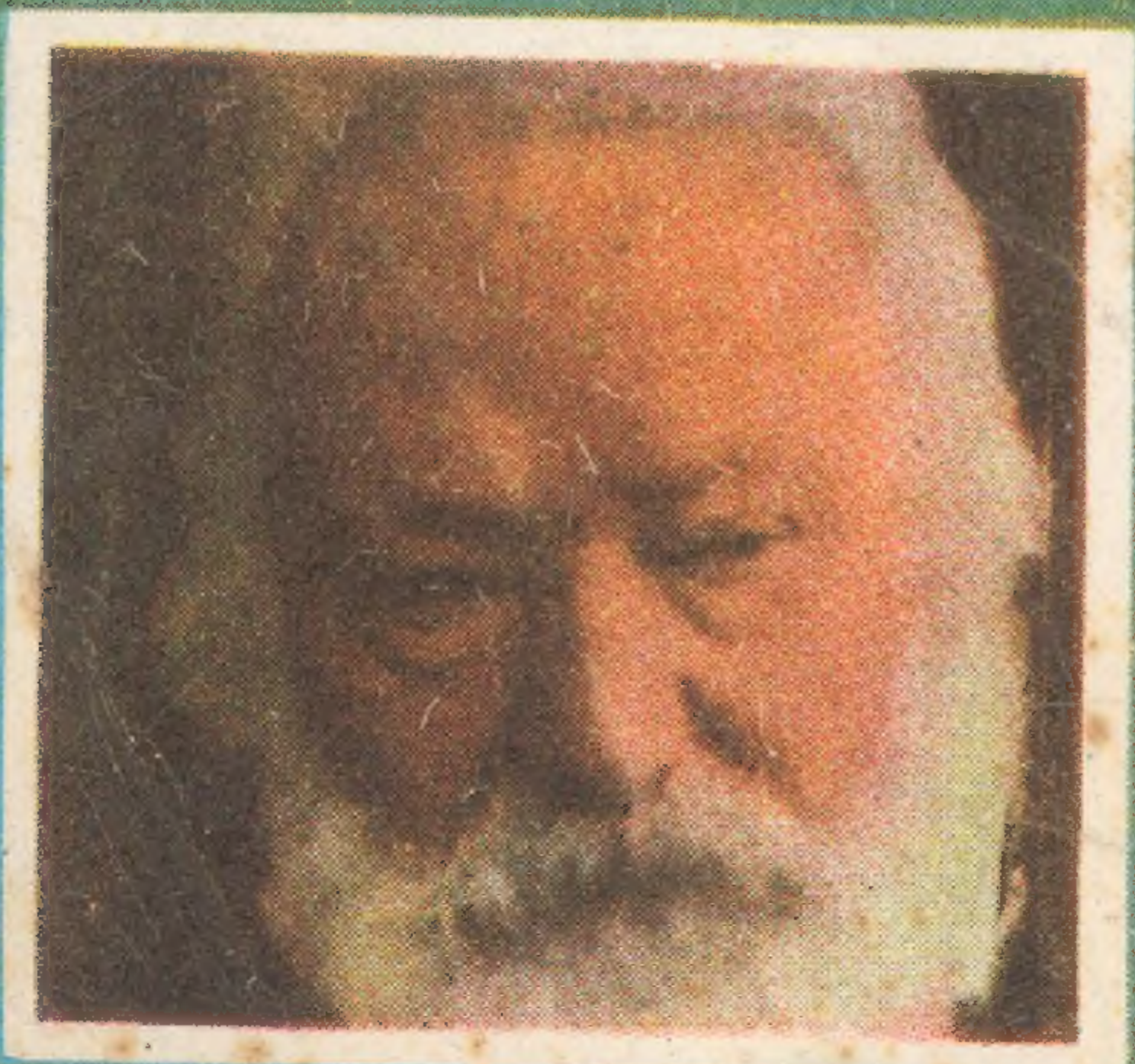
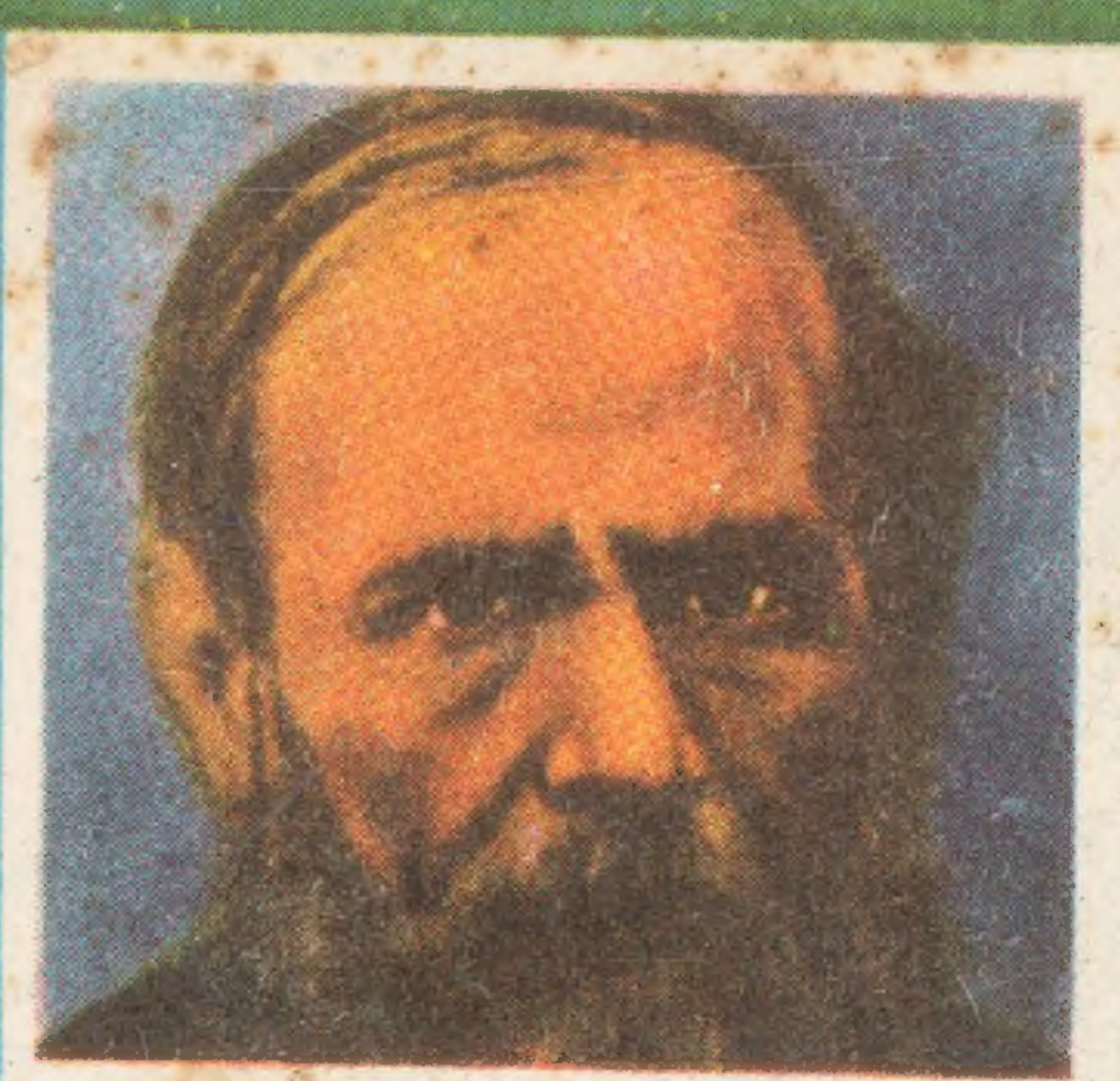
كتاب الهلال



# أعلام الفن القصصي

• هنري توماس و دانالي توماس • عثمان نويه

سلسلة  
ثقافية  
شهرية





# كتاب الهدى

## KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبوالمجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

## سکریٹر التحریر : عاید عیاد

العدد ٣٣٧ - صفر ١٣٩٩ - يناير ١٩٧٩

No. 337 — January 1979

**مركز الادارة**

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

## الاشتراكات

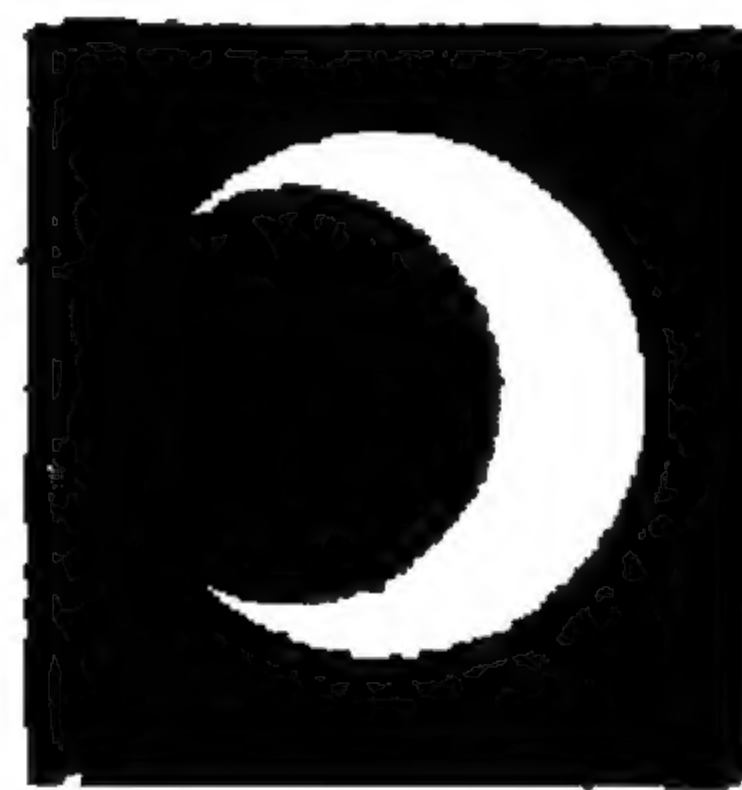
**قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ » عددا ، فى جمهورية مصر العربية  
وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا .  
فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك - والقيمة  
تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر  
التي هي من بين الدول التي تسدد اشتراكها مسبقا .**

٢٠٠٨٤١٢\_\_\_\_\_٥!

الدكتور/ محمد عبد القادر محمود

جمهورية مصر العربية

# كتاب الهلال



منظمة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

**الغلاف بريشة الفنان  
أحمد السيد الوردجي**

# أعلام الفن القصصى



تأليف

هنرى توماس و دانالى توماس



ترجمه  
عثمان نويه

راجعه  
محمد يدران



دار الهلال



الجزء الثانى

## الجزء الثاني

## جوستاف فلوبير

( ١٨٢١ - ١٨٨٠ )

- ١ -

فى عام ١٨٤٠ اقبل الى باريس لتعلم القانون شاب غريب . فيه حياء ، وفيه فظاظة ، فيه وسامة وفيه اهمال ، فيه كبرياء وفيه حساسية وسلطة ، وهو فى عامه الثمان عشر يبدو كأنه أفريقى فى قميص من القائلة الحمراء ومعطف أزرق ، وهو صموت ، فاذا فتح فاه خلت أن لسانه كان منقوعا فى برميل من الخل ، فهو يبدى احتقارا للتقاليد ، ويرى حماقة بالفة فى كل الناس بما فيهم هو ، « أن اول جاهل يقع عليه بصرى هو أنا اذا ذهبت الى المرأة فى الصباح لأخلق » ويردف قائلا « وآخر من ارى من الجهال هو أى شخص يتفق لى أن أحدثه قبل أن آوى الى مخدعى » .

من ذلك الشاب العجيب ؟ ان بالطلاب فضولا الى معرفة من يكون . انه فلوبير ، جوستاف فلوبير ، ابن كبير الجراحين بمستشفى روان ، ولقد قال أحد الطلاب لفلوبير سائلا ( لا شك فى أنه مما يفيض على نفسك السعادة الفائقة أنك ابن رجل عظيم ذائع الشهرة )

واى سعادة فى ذلك ؟

( كيف ! فكر فى كل هذه الأرواح التى ينقذها ) فأجاب فلوبير فى تهكم .



( ان أبى ينقذ الأغبياء صونا لما يأتون من حماقات ) .

- ٢ -

كان غريب الأطوار منذ نشأته الأولى ، فهو دائم الاهتمام بالجانب الأربد الكئيب من الحياة ، يتسلق ابان طفولته جدار مستشفى أبيه ، ليشهد الجثث فى قاعة العمليات ، وكان مفتونا بوجه خاص بالمجانين والمعتوهين ، وكان يتوهم أن المجانين والمعتوهين يبادلونه الافتتان . وكان دقيق الملاحظة بطبعه فما كاد يتعلم الكتابة حتى بدأ يقيد لمحات عن الناس . وشب ابن مشرح الجسوم البشرية مشرحا للأرواح البشرية . فهو منذ صغره يؤلف التمثيليات ويمثلها مع أخته على مسرح منزلى هو مائدة الطعام ، ولم يقنع بمسرحياته فكتب قصة ومقالين علميين أحدهما عن كورنى والآخر عن الامساك ، كتب كل هذا قبل أن يصل الى الحلقة الثانية من حياته .

لكن كان عليه أن يستخفى من أبيه حين يكتب . . لأن دكتور فلوير كان لا يقبل بتاتا أن يحترف ابنه الأدب . وحين حاول جوستاف أن يقرئه إحدى رواثعه أدركه النوم . فهو يتوق الى أن يجعل من جوستاف جراحا ماهرا مثله ومثل أشيل ( أخى جوستاف ) فنحن آل فلوير أسرة محترمة ولا نحب أن يكون بيننا أفاقون ولا شعراء .

ولذا أرسل جوستاف الى مدرسة محترمة وظل ثمانى سنين يحلم ويرقب ويكتب ويهتزا برفاقه الطلبة ويصاحبهم ، لأنه فى قرارته روح وديع ، شأن معظم قساة الساخرين ، فاذا كان عامه الثامن عشر أخبر أباه

- ٣ -



في بساطة أنه لن يكون طبيبا .

وكان أبوه مستعدا لأن يتساهل معه « اذا لم تشأ أن تكون طبيبا فلتكن محاميا » وأرسله الى باريس ليدرس القانون .

ولكن جوستاف كان عنيدا « انى بربرى عندى عناد البرابرة » وحب البرابرة للمفسامة « انى من نسل قراصنة صقليين » فسيغدو قرصانا روحيا افاقا باحثا عن ذهب العبارة الرائعة « انى لأنوى أن أكون أديبا لا شيء غير ذلك » .

فيئس منه أبوه كما يئس من حالة مرضية لا رجاء فيها ، وتنفس جوستاف الصعداء . فهجر كتب القانون والتفت الى دون كشوط « انجيل الحماسة البشرية » وصار هذا الكتاب المصدر الأول لفلسفة فلوير والمبدأ الرئيسى الذى يؤمن به « ليست كارثة البشر أنهم أوغاد ، بل أنهم حمقى » وكتب بهذه الفلسفة عددا من المسرحيات والقصص تناول نواحي الحياة الريبة القائمة ، منها قصة رجل فقد روحه تماما ، ومأساة مذهبول يدفن حيا ويموت مجدفا بالقدر ، ومغامرات مخلوق أمه من الأدميين وأبوه من النسائيس ، وقصص عجيبة فجّه كتبها لمجرد امتاع نفسه وامتاع أصدقائه .

وكان أصدقاء فلوير هؤلاء أكثر منه تشاؤما . « وكنا مجموعة من الشباب الهاذرين نحيا في عالم عجيب . ونضرب في طريقنا المألوف بين الجنون والموت » . وقد انتحر بعض هؤلاء الشباب ، ومات آخرون في فراشهم ، وشنق أحدهم نفسه برباط عنقه ، وأقبل كثير منهم على الشراب ابتغاء الخلاص من افكارهم .



ولكن فلوبير يستطيع الاحتفاظ بتوازنه ، فلا يجن ولا ينتحر ، وكان الفضل في ذلك لثلاثة من أصدقائه التقليديين ، أرنست شيسيفالير والفرد ليپورتفين وماكسين كامب .

وبينما كان لجوستاف اهتمام متشائم بالأدب والموت كان لهؤلاء الشبان الثلاثة اهتمام مخلص بالأدب والحياة، وكان شيسيفالير يجمع في شخصه بين الشاعر والسياسي . اذ كان رجلا رأسه في السحب وقدماه على الأرض . وكان ليپورتفين ابنا لتاجر ناجح ، وقدر له شخصيا أن ينجح في أعماله . ولعل من الطريف أن تعلم أن ليپورتفين خال موباسان . وأما دي كامب محرر مجلة باريس فقد نصب نفسه مرشدا لفلوبير وهاديا ، لا في مضارب الخيال وحدها ، بل وفي مسالك العالم أيضا . فأخرج فلوبير من عزلته وأغراه بمقابلة الناس وأستصحبه في رحلته الى الشرق عام ١٨٤٩ .

وكانت هذه الرحلة الى المشرق من الفصول الممتعة في حياة فلوبير ( لن أنسى قط تلك التجربة . هذه الألوان والأصوات التي سمعتها في مصر وعلى ضفاف النيل ، وفي سوريا ، وفلسطين ، ومالطة والقسطنطينية ) وفتن بالأهرام افتتانا خاصا ( حين بلغنا سفح التل الذي تقوم عليه هذه الأهرام أطلقت حصاني كالاعصار . وفعل دي كامب مثل فعلتي ، فلما وقع بصري على هذه العظمة دارمخي كما تدور الدوامة . وكنا وقت الغروب وقد تبدت الأهرام الثلاثة كلها في لون وردي وكأنها غرقى في بحر من الضياء ) .

ثلاثة أهرامات وثلاثة أصدقاء وعشيقة واحدة . وكان قد لقي لويز كولت ، وهي الفتاة التي عشقها ، في



معرض الفنان برادير . وكانت شاعرة هزيلة الموهبة  
جليلة التحسن . ولم يتحمس كثير من أعلام الأدب في  
باريس لجمال شعرها ، ولكن شعر جمالها يلهم ويأسر  
لبهم . وكان فيكتور هيجو محزوناً لبترا ذراعى فينوس  
سينو قد كرت له لويز ان ذراعى التمثال الشهير قد  
عثر عليهما .

فسألها هيجو دهشا أحقا عثر عليهما ؟ أين هما ؟  
فأجابت « تحت كمي » .

لقى فلوير الخجول هذه الحظية الشابة الجريئة  
فأسلم اليها قلبه وعقله وقدرته كلها على التمييز بين  
الأشياء . « انها ليست أجمل نساء باريس وحسب بل  
هى أذكاهن كذلك » كذلك قال فى عمى العاشق وغفلته .

لكنه لم يبن بها قط لسبب واحد هو ان أمه كانت  
قد رفضت مثل هذه الزيجة فأبوه كان قد مات ، ويقوم  
فلوير الآن مع أمه فى ( كرواسى ) على مقربة من روان ،  
وكانت مدام فلوير سيدة ضئيلة عصبية المزاج تحب ابنها  
حبا اثرا ( فلن تشركنى فيه امرأة أخرى ، ولو كانت من  
ملائكة الجنة ) .

ولكن فلوير كان يبغض الزواج هو أيضا . فهو  
لا يضمن بأى غال لديه إلا أن تتأثر بجسمه امرأة .  
فجسمه ذاك ليس غير خيال نفسه ، فهو كان يعيش  
فى عالم الأفكار لا عالم الأشياء وهو القائل ( لم يحدث  
قط أنى احتضنت امرأة حقا ، ولا لويز نفسها وكل  
ما انضمت عليه ذراعى انما كان خيال الحب وليس  
الحب نفسه ) .

ومع ذلك فقد كان خيال الحب ذاك من القوة بحيث



أثر في طريق حياته كلها . فهو يجود أسلوبه الأدبي  
بالهام لويز ويقدم على كتابة سلسلة من القصص قدر لها  
أن تقفز به الى الصف الأول من بين الخلاقين في أدب  
العالم .

ومع ذلك فان وحى الحب واخلاص الصداقة لم يكونا  
غير أخيلة عابرة في عالم أفكاره . . ذلك ان فلوير رجل  
متوحد أساسا ، يحيا مع أفكاره في خلوه . فهو يقطع  
ما بينه وبين لويز وما بينه وبين أصدقائه الثلاثة .  
وينسحب الى خميلة عبقريته . وكان سليط اللسان  
سليط القلم . فاذا تقدم اليه دى كامب بنصيحة عملية  
بشأن نشر كتبه حمل النصيحة على محمل الإهانة ( انى  
لا ألومك على نشر تواليك . واشكرك على النية الطيبة  
التي صدرت عنها نصيحتك فى شأن نشر تواليفى .  
ولكن جنونك يبعثنى على الضحك ، لقد اختلفت المسالك  
بك وبى فنحن لا نبحر فى قارب واحد . فليهد الله كلا  
منا الى حيث شاء . فيحملك الى مرفأ أمين ويقذف بى  
فى عرض البحر ) .

وهكذا ترك صحابه وخلصاءه وعشيقته ، ووجه قاربه  
نحو منفسح البحسر الطليق . بحر حياة أدبية عنيفة  
لا تهدأ .

### - ٣ -

كان فلوير فى أدبه متريجا نادرا من الكاتب الخيالى  
والواقعى ، فهو يقول عن نفسه : انى لانتوى على رجلين  
متميزين ، أحدهما يحب الضوضاء والانشاد والتحليق  
كما تحلق النسور، ويحتفل برنين الديباجة وذرى الفكر



السامقة . والآخر يبحث عن الواقع ويوغل فيه أعمق ما يستطيع ، ويحفل باستخراج الحقائق الصغيرة كما يحب استخراج الحقائق الكبيرة ، ويتمنى لو يضع يده على ما يخرج من الأشياء . هذا الشخص ينعم بالضحك ويستمتع بحيوانية الإنسان .

كان فلوبير طوال حياته يتأرجح بين عالمي الخيال والواقع . كان أحيانا يخلق إلى ذرى الخيال وأحيانا أخرى يسف حتى يوغل في وحل الوجود المادي .

ومهما يكن العالم الذي يتفق له أن يعيش فيه الآن ، فإنه يتوق أبدا إلى العيش في عالم آخر . فهو لا يتحدث قط عن الكتاب الذي يؤلف ، بل هو دائما يتحدث عن الكتاب الذي سوف يؤلفه بعد هذا ، فكانت سلسلة مؤلفاته لذلك تعاقبا متصلا مطردا بين الواقعي والخيالي ، مدام بوفاري . التربية العاطفية . اغراء سانت انتوني . بوفارو بكيشيه . ولم يكن هذا التعاقب مجرد اتفاق ، بل جاء نتيجة صراع داخلي دائم بين الفنان والعالم ، الشاعر والساخر القاسي ، مواسي البشرية ومزدريها .

لكنه كان دائما فيما يكتب الفنان السامق ، وهو يهتم باللفظ أول ما يهتم . فاللفظ عند فلوبير ليس مجرد أداة للفكر ، بل هو وحدة حية لها صوت وعبر وشخصية وروح . وكان يصقل صفحاته ويعيد صقلها ، وكان كثيرا ما يهب يوما بأكمله ، لينقح عبارة واحدة ، حتى يستحيل مجموع الكلمات على هذه الصفحات وحدة غناء كاملة فهو يتجنب ما أمكن تكرار لفظ بعينه في نفس الصفحة ، « أن من الخطأ إبداء أذن القارئ كما أنه من الخطأ إبداء قلبه » .



لكنه لا يكاد يحترم عقل قرائه ، فالعقل البشرى غبى  
أتعس غباء ، وكان هذا الدرك من الغباء البشرى ينفره  
ويستهويه فى آن معا . فهو يدرسه كما يدرس طبيب  
مخلص مرضا كريها لعله يستطيع علاجه بعد أن يتبين  
سببه . فاذا قيل : ان « ارنست رينان » كان أبدا  
يحاول أن يجد شيئا من الحكمة حتى فى الأحمق فان  
جوستاف فلوبر كان يحاول أبدا أن يكشف شيئا من  
الحماسة حتى فى الحكيم . ولكن الطبيب فى فلوبر هو  
الذى يحب أن يتعمق الشخصية الآدمية ، مصرا على  
اجراء كشف طبي فترى كامل ، لكى يكشف عن المرض  
ويستأصله فور ظهوره .

وفى جهوده للكشف عن المرض واستئصاله ، مرض  
الخسة الرأس مالية ، تفكر وكتب أعظم قصصه ، مدام  
بوفارى ، وكانت هذه القصة قصة روح خاطئة مثلها  
مثل فاوست جيته . ولكن اذا كان بطل جيته الأخرق  
يهتدى بفريزته الى الطريق الصحيح الأوحده . فان بطلة  
فلوبر المتدبرة تضللها غريزتها وتغريها بالطريق الخاطيء  
الأوحده . طريق الابتعاد عن الملل والسعى الى الموت  
عن طريق الاسراف على النفس .

قصة ( اما بوفارى ) هى صورة واقعية لروح خيالية .  
كانت ( اما ) ابنة فلاح رحيم شهوانى مرح مثقل بالخيلاء  
بعيد عن الدين . فريت منذ طفولتها الأولى تربية أغرتها  
بالعيش وراء الأفق « ففاكهة الحقل التالى .. أحلى  
دائما فى خيالها من فاكهة حقلها » .

وقد نشأت فى دير . فطعمت غزلا مرهقا من تلك  
الأساطير الدينية التى كان يسمح لها بمطالعتها أيام  
الأحد من باب التسرية ، وعادت من الدين الى المزرعة



فوجدت نفسها مرة أخرى في وسط بيئتها الدميعة  
وأحلامها الجميلة ، فهي تتوق الى هجران أصوات  
الحظائر والحقول ومناظرها وروائحها . تريد لترحل  
من هنا الى مكان آخر ، تتوق لأن ترى أحدا يسير لها  
هذه الرحلة ، فيظهر في حياتها شاب ، شارل بوفارى ،  
وهو ليس حسنا ولا سيئا ، ولا ماهرا ولا غبيا . هو  
مجرد رجل عادى مغمور لا طرافة فيه ، لكنه في نظر  
( أما ) فارس الأحلام الذى سسينقذها من سأمها ..  
فتتزوجه ، ولكن ماهى الا لحظة بعد الزواج حتى تعود  
الى أحلامها القلقة لأن بوفارى يمثل هذا المكان العادى ،  
( أما ) دائمة الحنين الى المكان الآخر الرائع .

وهذا رجل آخر قد اقبل لينقذها يسمى ( ليون )  
وكان شابا رشيقا خياليا . قضت معه لحظة من السعادة  
الفائقة ، وأصابت معه نظرة مختلصة الى السماء فيما  
وراء الأفق .. ثم تركها .

فيعود اليها الواقع من جديد أثقل وأكأب واخنق  
الأنفاس مما كان . وتمضى الأيام متشاقة كأنما أقدامها  
قد شدت الى أثقال من الرصاص ، حتى أحلامها قد  
صارت الآن مثقلة بملاة متصلة .

ثم يأتى العاشق الجديد فتلقى بنفسها بين أحضانها  
أشد ما يكون التهاك ، أنها تدخل الى شئ ساهر ،  
كل شئ فيه عاطفة ونشوة وهذيان تحوطها مساحة  
شاسعة من الزرقة ، ويرف فى أفكارها رائع الخيال .

وأما الوجود العادى فيبدو بعيدا مسفا فى الظلال التى  
بين هذه القمم ، وتقضى حلمها جديدا مع عاشقها  
الجديد ( رودلف ) فيسافران معا فى الخيال الى بقاع



نائية الى اسبائيا بقيثاراتها ، وايطاليا بسمائها الزرقاء ،  
والشرق بماذنه واسواقه لكن هذا الحلم ايضا سرعان  
ما يتبدد . اذ ينشأ بينها وبين رودلف شجار ثم تركن  
( اما ) الى الحقائق التى تقع قريبا من هوة اليأس . ان  
عالمها الحقيقى لا يحتمل ، وعالمها الخيالى قد تحطم ،  
ولم يبق غير شىء واحد هو النسيان . فتلمس هذا  
النسيان فى حمى انفعال شهوانى . فتقابل ( ليون ) مرة  
أخرى وتلقى بنفسها بين أحضانه ، لا بوصفها عاشقة  
هذه المرة ، بل بوصفها محظية . فهى تحلم الآن لا بأن  
تفر من الواقع ، بل بأن تفر من نفسها .

وهكذا تسقط من هوة الى هوة من ( ليون ) الى عازف  
أوبرا . من عازف الأوبرا الى كاتب عقود . ثم توقفت  
حتى عن الأحلام ، لقد أصبحت حباتها فرارا مختلطا  
يائسا مفزعا .

ثم كان الاختيار الاخير بين السجن والقبر . واختارت  
( اما ) القبر لأن الحمأة ليست الا نكسة الى الواقع ،  
أما الموت فهو الرحلة المخيفة المرجوة وراء الأفق ، الرحلة  
العظمى الأخيرة الى أرض الخيال .

لقد ظلت ( اما بوفارى ) خيالية حتى النهاية .

- ٤ -

لما نشر فلوبير قصة (مدام بوفارى) نعى عليه النقاد ،  
ووصفوه بأنه خطر على الأخلاق ، فقبضت عليه الحكومة  
الفرنسية بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلل الى  
الجمهور . وبعد محاكمة عاصفة حكم ببراءته ، ولكن  
ذلك لم ينجه من توبيخ شلفوى توجه به اليه رئيس

- ٥ -



الجلاسة ، وكان على جمهور الفرنسيين أن يقنعوا كلا من النقاد والحكومة ان مدام بوفارى صورة صادقة للحياة .  
وانها في امانتها مع الحق ليست أكثر بداءة من وصف صادق لكتلة من كتل الجليد الهاوية . وكان فلوير لا يحفل بعواصف القدح ولا زوابع المدح . كان يجلس كما يجلس راهب معتصم في منزله ، ويسخر بالعالم ويمتعه على التعاقب ، ليصير الى حالة عقلية خير من حاله . انى ساساخر متهمك لاشك في ذلك ، ولكن السخرية هي الملح الذى يمكن البشر من أن يستمرىء تفاهة الحياة .

كان فلوير أشد رجل في أوربا عزلة ، كما يصفه اصداقاؤه ، كان ينفق الجزء الأكبر من السنة فى ( كرواست ) لا يذهب الى باريس الا لماما ، ليتحدث الى جورج ساند ، أو يتعشى مع فيكتور هيجو ، وقلة من ارواح توائمه .

كان ضخيم الجثة ، له شارب قرصان ، وعينا طفل ، ومع انه كان يحب لقاء زملائه اذا عرضت فقد كان يفضل الوحدة على الاتصال بهم ، وكان يقطن منزلا طويلا واطنا يقع على السين ، وكان لحجرة مكتبه خمس نوافذ « فحيثما انقل بصرى ارى السماء العالية » .

منزل قديم متين ، ورجل عجوز متين ، ذو عادات مستقرة متينة ، يستيقظ فى الساعة العاشرة بانتظام ، فيقرأ خطابات وأوراقه ، ويتناول فطورا خفيفا فى الحادية عشرة ، ثم يسير متنزها على ضفة النهر ، ويعود فى منتصف الساعة الواحدة فيجلس للعمل حتى الساعة السابعة ، ثم يتناول عشاءه . ويتنزه نزهة قصيرة فى الحديقة ، ويعود الى مكتبه ليقضى فى العمل فترة أخرى



تستمر حتى بعد منتصف الليل .

انه يكاد يعيش بكليته بين كتبه « ياله من رجل عجوز خشن ، يبغض بنى الانسان » كذلك كان يقسول عنه جيرانه ، لكنهم لم يعرفوا ان هذا المبغض لبنى جنسه ، قد ضحى بمعظم ثروته لبعض اقاربه الأبعدين الذين كانوا احوج اليه منه .

وهكذا عاش وحيدا يبذل هباته لا ينتظر عليها شكرا، ويكتب قصصه لا يبقي منها شهرة . انك اذا حللت الانسان وجدت آخر الأمر انه يحيا في افكاره . وهذا هو المكان الذى يجد فيه متعته الوحيدة ، ويتلقى فيه جزاءه الوحيد ، وكان وسط افكاره هذه يكتب قصته ( بوفارو بكوشيه ) فأخذه الموت يمينه ، وقاده الى مشاهد جديدة لتواليف أعظم .



## ناثانيل هوثورن

( ١٨٠٤ - ١٨٥٤ )

- ١ -

كانت حياة هوثورن رمزا شعريا للخلق ، كما كانت مخلوقات هوثورن رمزا شعريا للحياة . ولد لقوم يجوبون البحر ، فجلس منعزلا على الشاطئ ، يسجل في هدوء ذلك الصراع الأبدى بين الرمل وموج الشاطئ . ولقد يبدو هذا العزوف في نظر أصحاب الشخصيات النشيطة اضاءة للوقت ، ونكوصا عن مواجهة المشكلات الخطيرة التي تواجه الكبار في العالم . على ان « عبث الأطفال هذا - كما يقول هوثورن - يفدو رائعا مادام على هذا النطاق الواسع » .

وبينما كان الآخرون يحاولون في استماتة ان ينقشوا أسماءهم في الرمال ، كان هوثورن يرقب تدافع الأمواج لتعفى على آثارهم . « ارسم الحروف ( على الرمال ) ضخمة ، بحيث تزيد على ان تقاس بخطوتين او ثلاث . وليكن الحفر عميقا كي يبقى على الزمن ! ان الساسسة والمحاربين والشعراء لم يستنزفوا قواهم لهدف خير من هذا الهدف . فهل حققوه ؟ عليك اذن ان تعود في خلال ساعة او ساعتين ، وأن تبحث عن ذلك الاسم الذى حفر عميقا . وستجد ان البحر قد عفا عليه ، وبينما الزمن نفسه يدفع بموجات العفاء على أسماء الساسسة



والمحاربين والشعراء ،

أرهف سمعك انت فان موج الشاطئء يضحك منك!». .

وقد صرف عنايته الى مراقبة هذه الآثار ، وذلك العفاء على المحاولات البشرية ، والى ان يقدم للتاريخ خصائص تلك الحروف التى نقشت فى الرمل قبيل ان تعفو عليها الأمواه .

وكان شديد العناية بنوع خاص بآثار حركة المتطهرين المتداعية فى أيامه . فأدرك كنهها وحفظها من النسيان قبيل أن يحل محلها التفاؤل الطروب الذى ساد أيام ما بعد الحرب الأهلية .

- ٢ -

وحينما قرر هوثورن ان يكرس نفسه للأدب ، كان يعلم انه قد قضى عليه بحياة الفقر والألم والاهمال . ذلك ان الأدب كان فى أمريكا سلعة غير رائجة ، بل لقد كان قرض الشعر أيام المتطهرين يعد خطيئة . شأنه فى ذلك كشأن لعب الورق أو شرب الخمر أو تقبيل زوجة رجل آخر سواء بسواء .

وكانت أقدم المسرحيات الأمريكية ، تتفادى رقابة المتطهرين بأن يطلق عليها تجملاً (محاضرات خلقية) . على ان الرقابة كانت قد خفت أيام هوثورن الى حد ما ، وان بقيت مهنة التأليف من المهن غير المأمونة ، غير ان هوثورن كان على استعداد الآن يقوم بالمجازفة . فانه من قوم مفامرين ، فلقد كان آل هوثورن يقودون السفن منذ أجيال خلت . وكان دم البحر يجرى فى عروقهم

- ٢ -



وكان الاقدام على المخاطر المجهولة طبيعة ثانية في هذه الأسرة .

وفضلا عن ذلك فان التعليم الأول لهوثورن قد جعله غير صالح لحياة الأعمال أو المهن . فلقصد ربي بحيث صار ( رجلا انطوائيا ) اذا استخدمنا تعبير علماء النفس المحدثين . فكان يعيش في عالم تفكيره الخاص .

وقد ولد في بداية القرن ( ١٨٠٤ ) وفقد أباه البحار وهو لم يزل طفلا . فاعتكفت أمه مع ناثانيل وابنتيهما الصغيرتين في منزل منعزل في ( سالم ) ، وهناك اعتزلوا العالم ، وكأنما قد أغلقت عليهم سـفينة في وسط الأطلنطي . بل كان كل فرد منهم يحيا منعزلا عن باقى أفراد أسرته .

لقد قضت تلك الراهبة المتطهرة العجيبة على أطفالها بأن يحيا في هذا الدير الصغير العجيب . فكان كل من الأبناء يأكل ويلعب ويقرا ويتفكر في حجرة خاصة ، بحيث اضطر ناثانيل الى أن يخلق عالما من الأشخاص الخياليين ليكونوا في صحبته .

وكان بالإضافة الى ذلك قد أصيب في باكر عمره اصابة بالفة في ساقه ، فأقعدته هذه الاصابة سنوات كثيرة عن مشاركة الأطفال الآخرين في اللعب . واذ كان حساسا بطبيعته ، متأثرا بتزمت أمه ، فقد كان يقضى النهار بطوله داخل المنزل ، فاذا كان الفسق أو الظلام خرج يتجول في الحقول ، أو على شاطئ البحر . كان من أثر هذا المسلك انه عرف الطبيعة في اقتم أمزجتها . فكان طول حياته لا يرى العالم الا وقد اكتسى حلة غبشاء أو سوداء . واننا لنجد هذا المزاج واضحا في كل أسلوبه



الأدبي ، فكانت لغته ذات حلاوة حزينة وكأنها العالم  
يفنى لينام .

- ٣ -

التحق في عامه السابع عشر بكلية بودوان ، وهناك  
قابل اثنين من الطلبة كان لهما أثر في مستقبل حياته ،  
هما هنري لونجفيلو ، وفرانكلن بيرس . ولقد قاسى في  
حياته الدراسية ذلك الشقاء الذى يلقاه عادة عبقرى  
أعمق من معلميه فكرا ، فحصل على درجات صغيرة .  
فاذا تخرج عاد الى (سالم) وأقام يحلم بالحياة كما قال  
« بدلا من أن يحيا الحياة » .

وكان يكتب القصص ويقرأها لنفسه ثم يلقى بها في  
النار . لقد عجز عن أن يكون ممثلا في مسرحية الحياة ،  
ولم يقنع بأن يظل أحد النظارة ، فقرر أن يكون معقبا  
شديد الملاحظة . وكان يقرأ اذا كان الصبح ، ويكتب  
اذا كان العصر ، ويمشى مسافات طويلة اذا كان الليل .  
وكان ينظر الى الأرض المظلمة ويمررها بالأشكال  
والعواطف التى تنتمى الى عصور ماضية وإلى جيله أيضا .

لقد صار مكتشفا للسر المكنون ، وباحثا في مجاهل  
الروح البشرية . فأخذ عظام التاريخ الجافة فكساها  
لحما لا ينتمى الى هذه الأرض ، شاحبا ولكنه جميل -  
ثم يقذف بهذه الأشخاص الهشة فى الخطيئة ، ويحلل  
تصرفاتها بقسوة المتطهر وحنان الشاعر . واننا لنجد  
هذا الازدواج فى عبقريته ، وذلك الصراع الدائم بين  
تقواه ورحمته ، حتى فى أقدم ما نشر من كتبه وهو  
مجموعة القصص المسماة ( قصص تروى مرتين ) .

- ٤ -



ومن أشد هذه القصص دلالة عليه ( عمود مايو بالجبل  
المرح ) وهي قصة شاب وشابة دخلا حصن المتطهرين  
بنيو انجلند ، وفي قلبيهما لوثة من الوثنية الهوجاء .  
فالحياة عند المتطهرين حقيقة صارمة ، ولكنها عند  
هذين الشابين الوثنيين لاتعدو أن تكون رقصة مرحة .  
انهما خاطئان ولا بد من عقابهما على الخطيئة . وهكذا  
بينما هما يحتفلان بزواجهما حول عمود مايو اذ هاجمهما  
الحاكم انديكوت بجنداه فجرد عمود مايو من ازهاره  
وقضى على الزوجين المذعورين بحياة من المشقة الجسدية  
والاقتباس الروحي ، ولكن هنا نجد الشاعر في هوثورن  
يناهض المتطهر فيه . فحين اخرج الزوجان من مشهد  
السعادة قام الحاكم العجوز القاسي برفع اكليل الورود  
من بين حطام عمود مايو وقذف به بذات يده فوق  
رأسيهما . ان الخطيئة الدميمة تجزى بالعقاب . ولكن  
ألها الجميل يجزى بالورود ، وكانت هذه نفمة جديدة  
في الأدب الأمريكي .

ولسكن الجمهور الأمريكي لم يكن قد تهيأ بعد لهذا  
النوع الجديد من الأدب ففشل الكتاب من الوجهة المالية .

#### - ٤ -

لقد تقدم رفاقه في الدرس في مضمار الحياة . فقد  
صار لونغفيلو أستاذا في هارفارد وصار بيرس عضوا في  
مجلس الشيوخ الأمريكي . أما هوثورن فلم يزل يضرب  
على غير هدى . وحصل على عمل فترة من الزمن هو  
وظيفة وزان فحم في جمر ك بوسطن . غير ان هاريسون  
قد انتخب رئيسا جديدا للجمهورية ففصل هوثورن من



عمله في موجة التغييرات التي تلي الانتخابات الأمريكية عادة .

ثم استثمر مدخراته ، وكانت تبلغ نحو ألف دولار في المستعمرة التعاونية المسماة « بروك فارم » واعتقد انه سيستطيع العيش دون الكفاح في طلب الرزق . وكان هذا العصر يتميز في تاريخ أمريكا بأنه عصر التجريب . فنبئت فيه كل المذاهب ، الاشتراكية والحركة النسائية والتسامي الفردي والفوضوية والشيوعية وما الى ذلك ، وكان المثاليون على استعداد أن يعلنوا مقدم عصر سعيد لا شقاء فيه . وكان المنتظر أن تصبح بروك فارم بزعامة مارجريت فولر إحدى جنات هذا الفردوس الذي سيقوم في الأرض . وقد أثبت أعضاء بروك فارم كفاية عملية اذ اختاروا صاحبنا هوثورن - وياه من اختيار - مستشارا ماليا لهذه المستعمرة .

وهكذا نرى هوثورن في دور جديد . دور ممول الفلاحين . فألقى بقلمه جانبا وحمل مذراته ، وبدلا من أن ينثر الحبر على الورق صار ينثر السماد على الحقول - فياله من منظر غير متسق - منظر ملاك في كومة من القاذورات . لقد تحمل هذه الحياة قرابة عام . ثم عاد الى (سالم) بعد اذ فقد كل ماله في تجربة بروك فارم . ولكنه قد وجد فيها مادة لقصته الوحيدة ذات الألوان (قصة بليثديل) ويختلف أشخاص هذه القصة عن الأشخاص القائمة في قصصه الأخرى في أنهم ينعمون بدفء الشمس ساعة الظهيرة .

انه الآن في الثامنة والثلاثين من عمره ، شخصية بارعة الجمال ، عديمة الجدوى الى درجة تبعث على الرثاء . لقد كان له جسم هرقل ورأس أبولو ولكن عينيه



كانتا أشبه بعينى طفل مفزع ، أو غريب ذى جنة اتى من أرض غريبة . فكان يجفل من صحبة الناس . وكان أكثر ألفة بأشخاص قصصه منه بسكان (سالم) . فاتخذ لنفسه مقعدا متوحدا على المرتفعات ، وشرع يحول الحياة الى قصص . ولكنها قصص أكثر حيوية من الحياة ذاتها .

لقد كان مشغوبا بفنه بحيث أحب ان يعيش دون ان يزعجه العالم أى أزعاج أو يتطفل عليه أى تطفل . وكان اذا اقتحم عليه أحد عزلته التأملية امتعض « فى مقت باطنى ، وفرار لايلوى على شىء من مقدم هذا الشخص . كأن ذاتا أخرى قد أفزعتنى ، فهرعت أجرى على الصخور ، واعتصمت بمنحنى جدول ينتمى الى بحق الساعات التى خلوت فيها اليه » .

ومع ذلك فان عزلته لم تكن كاملة . فقد تزوج صيف عام ١٨٤٢ من (صوفيا بيبودى) وهى المرأة الوحيدة التى قدر لها ان تمنحه سعادة حقة . وانتقلا الى (كونكورد) مدينة الذكريات الثورية والأرواح الثورية من أمثال برنسون الكوت وهنرى ثورو ورالف والد وايمرسون وايلرى شاننج . وهنا شعر بشىء من الألفة فقد كانت الحياة هنا تشبه حياته من وجوه كثيرة ، ولكنه حتى فى هذا المكان لا يخرج عن تباعده واستحيائه الا فى أندر الأوقات ، وقد استأجر منزلا متهدما فى أحد الأركان المنزوية فى المدينة . وكان يلتف فى رداء النوم الممزق ويقول « قد لا أصير مالكا فى يوم من الأيام ولكنى أكبر مالك للثياب المهلهلة فى البلاد » وأقام على رسم شخصيات وثنية فى اطار متطهر .

وظل أربعة أعوام لا يكاد يستطيع المضى فى عمله معتمدا على ماتدره عليه القصص من ربح . ثم واثاه الحظ .



فلقد استعاد الديمقراطيون رئاسة الجمهورية ، فعين هوثورن مشرفا على جمرك (سالم) وكان راتبه ١٢٠٠ دولار في السنة . وكان هذا مبلغا خرافيا في ضخامته بالقياس الى ( سالم ) عام ١٨٤٦ .

على ان حظه السعيد قد تخطى عنه عام ١٨٤٩ . فقد انتخب ( زخارى تايلور ) رئيسا للجمهورية ، وكان معنى هذا فصل هوثورن من الجمرك . وكانت كارثته تبعث على الرثاء ، فانه ليشعر بأنه شيخ مسن مع انه لم يتجاوز الخامسة والأربعين وكان عليه ان يعول زوجة وطفلين ، دون ان يكون لديه مدخرات يركن اليها ، أو أمل في الحصول على منصب جديد . ولكنه نجا بفضل ثلاثة أمور ، شجاعة زوجته ، وكرم أصدقائه ، وإيمان الناشر بقدرته على كتابة قصة من عيون الأدب .

لقد تلقت زوجته نبأ فصله من الوظيفة كما تتلقى أسعد الأتباء . فابتسمت له في شجاعة وقالت « سيتحقق لك آخر الأمر الفراغ الذي تستلزمه كتابة تلك القصة العظيمة » وأقامت مدفأة في غرفة مكتبه وعينت بأناقة المكتب ، وأعانتة على ارتداء ملبسه المريح وهيأت له ان يجلس ويكتب ، ثم ذهبت الى الطابق الأعلى وعادت وفي يدها مائة وخمسون دولارا من الذهب البراق، وهو مبلغ كانت قد ادخرته سرا لمثل هذه المفاجآت .

وما هي الا أيام قليلة حتى علم هوثورن على حين بفتة انه غنى بحب أصدقائه ، كما هو غنى بحب زوجته وإخلاصها ، فقد تلقى صكا بمبلغ ضخيم مصحوبا بخطاب مؤثر، ممهور بتوقيع جورج هيلرد ، وهو أحد الأعضاء في جماعة كمبردج ، التي كان يرأسها لونغ فيلو . وقد جاء بخطاب هيلرد مايلي « لقد خطر لي كما خطر لبعض



اصدقائك انك قد تكون الآن بحاجة الى معونة مالية صغيرة . لذلك فقد جمعت المبلغ المرفق من اولئك المعجبين بعبقريتك المقدرين لشخصيتك ... واني لاعلم فيك حساسية المزاج . لكن لا تتحدث عن التزاماتك . ولا تفكر فيها . وانما نحن قد ادينا جزءا صغيرا جدا مما نحن مدينون به اليك ، لما لك على الادب الأمريكي من ايداد .. فلا تدع اى ظل من الألم أو اليأس يتسرب اليك ايها الصديق العزيز . ان اصدقاءك يذكرونك ولن ينسوك ابدا .. » ورد هوثورن على هيلرد بخطاب قال فيه « لقد اثار خطابك دموعي على نحو لم تفلح متاعبي في اثارته .. لقد كان ثمة كثير من الحلاوة وشيء غاية في المראה يمتزجان في هذا الدمع نفسه .. ان المسأل ياعزيزي هيلرد سيمهد سبيلى وقتا طويلا . وليس من سبيل يستطيع به المرء الاحتفاظ بكرامته بينما هو يعتمد على كرم اصدقائه الا بان يتخذ من هذا حافزا له على بذل اقصى الجهد حتى لا يحتاج الى معونتهم مرة اخرى » .

ومضى في كتابة قصته باذلا في كتابتها اقصى جهده ، لكنه لم يكن مؤمنا بنفسه . زاره في ( سالم ) ذات يوم ناشره جيمز . ت . فيلدس .

فوجد هوثورن في مكتبه يحوم في حيرة حول مدفاته ، فسأله الناشر « هل اعددت شيئا للمطبعة ؟ » .

فاجابه هوثورن « كلا ! كيف يجازف ناشر بطبع كتاب لى وانا اوفر كتاب امريكا حظا من كراهية الناس ! » « انى انا هذا الناشر » .

فقال هوثورن مؤكدا « ولكنى فى الواقع ليس لدى



ما يستحق النشر » .

ففتح فيلدس الباب وكاد أن يخرج فأخذ هوثورن من أحد أدراجة حفنة من الأوراق المخطوطة وقال في تردد « لعلك تتنزل بتصفح تلك الحزمة من القمامة » .

وأخذ الناشر الحزمة معه . وفي تلك الليلة كتب خطابا حماسيا الى هوثورن . لقد كان المخطوط الذي فرغ لتوه من قراءته هو مشروع ملخص قصة « الحرف الأحمر » .

- ٥ -

ولا تبدأ حوادث ( الحرف الأحمر ) من البداية . فان هوثورن يستخدم فيها طريقة رواية القصة من آخرها . يبدأ المشهد الأول باطلاق (هستر برن) من السجن . وهذه هي هستر المرأة الشديدة الحنين الى الحب ، والشديدة القدرة على معاناة الألم ، تخرج من ذلك الحصن المظلم ، وعلى ذراعيها طفل عمره ثلاثة أشهر . وعلى صدر جلبابها يظهر حرف ( ز ) بالقماش الأحمر .

وكانت رزينة المظهر ، كريمة الفؤاد ، سارت الى مكان التشهير . وكان في أحد أطراف الحشد المتطلع رجل ضئيل . وكان له جبين ذكي وعينان قاسيتان . وكان هذا الرجل (دكتور روجر شيلنجويرث) هو زوج (هستر برن) لقد غاب عن موطنه عدة سنين وهو الآن غريب في بلده .

وكان قسيس المدينة المحبوب (آرثر ديمسداال) شابا يربو اخلاصه على شجاعته . وهو يشق لنفسه طريقا في خلال الحشد ، ويقف الى جانب (هستر) ويلح عليها



ان تذكر من زنى بها . ولكن (هستر) ترفض فى اباء ان تستسلم لالحاحه .

ثم لايلبث الكاتب أن يبدأ فى نسج العقد والأحابل التى تعقد حياة الأشخاص الأربعة الرئيسيين وهم (هستر) ودكتور (شيلنجويرث) و (آرثر ديمسداال) و(بيرل) الصغيرة ، وفى الليلة التالية لإطلاق سراح (هستر برن ) من السجن تمرض طفلتها ويستدعى الدكتور ( شيلنجويرث ) .

فتقول (هستر) هامة « لقد أخطأت فى حقك خطأ بالفا » .

فأجاب زوجها « لقد أخطأت أنا كما أخطأت ، فأنا رجل من رجال الفكر ، وأنت امرأة من أهل الجمال ، فبأى حق صرنا زوجين ؟ » .

ان ( روجر شيلنجويرث ) يفهم ، ولكنه لا يصفح . فان عقله وقلبه مختلفان فى سبيليهما . فهو مصر على معرفة من فسق بامراته ومعاقبته .

وتتعيش (هستر) من أشغال الابرّة . وكان أهل الفضل فى المدينة مصرين أول الأمر على أن ينزعوا منها طفلتها ، ابنة السفاح ، ولكن يتغلب ( مستر ديمسداال ) عليهم أخيرا فيدعون الطفلة لأمها .

فيقول ( روجر شيلنجويرث ) باسم « انك يا صديقى تهتم بهذه المرأة الفقيرة اهتماما عجيبا » .

وتتدهور صحة (مستر ديمسداال) . فيندب دكتور (شيلنجويرث) نفسه لمعالجته . ويساكن القسيس ، لأنه مصر على أن يتبين أسرار قلب (ديمسداال) . ولتلاحظ

كيف ان الكاتب قد جمع بين الرجلين جمعا جثمانيا  
لكي ينسج خيوط انفعالاتهما العقلية والروحية. ويفدو  
(شيلنجويرث) صورة مادية لضمير القسيس المذنب .

وان (ديمسدال) لينظر الى (شيلنجويرث) في فزع  
متزايد ، ولطالما حاول أن يعترف بخطيئته من فوق  
المنبر ، ولكن شجاعته كانت تخونه دائما.

وفي سكون الليل ذات مرة ، صعد الى مكان التشهير  
حيث وقفت (هستر) يجللها العار . وكان يعتقد ان كل  
الناس نيام ، ولكن يراه ثلاثة أشخاص (هستر وبيرل)  
وكانتا عائدتين من منزل امرأة تحتضر ، ودكتور  
( شيلنجويرث ) .

وفي رثاء ساخر: يصحبه الطبيب الى المنزل « لا ينبغي  
لك أن ترهق نفسك في الدرس الى هذا الحد أيها السيد  
الطبيب ديمسدال » .

وهكذا أحكم نسج القصة بحيث صارت الى نموذج  
محدد يبعث على الأسى . ثم تتحرك القصة مسرعة الى  
ذروتها التي لامفر منها ، فترسم (هستر) خطة للفرار  
مما يحدثه (روجر شيلنجويرث) في نفسها من أثر قاتل .  
فتزعم السفر الى انجلترا ومعها ( ديمسدال وبيرل ) .

ولكنهم يجدون ان ( شيلنجويرث ) لا ينهزم بهذه  
السهولة . فقد علمت (هستر) انه أيضا قد حجز تذكرة  
على نفس السفينة الزاهية الى انجلترا . ولتلاحظ  
مهارة الكاتب في ان هذه المعلومات تأتي في يوم من أيام  
الاجازات البالغة الأهمية ، اليوم الذي اختير فيه  
(ديمسدال) ليلقى موعظة الاختيار تكريما للحاكم المعين  
حديثا .



وهكذا تلتقى في يوم واحد أعلى ذرى مجد (ديمسدال) وأبعد أغوار مأساته . فلم يعد في وسع (ديمسدال) أن يخفي خطيئته مع (هستر) أنه ليفضل الاعتراف الآن بما يستتبعه من عار ، على عذاب المستقبل الذي يصبه عليه ( شيلنجويرث ) . وهو يتعمق أبعد أغوار روحه .

وهكذا يلقي (ديمسدال) موعظة الاختيار للجمع الذي يعبد ، ثم في حركة مسرحية يرقى مكان التشهير ومعه ( هستر و بيرل الصغيرة ) .

ويصيح قائلاً « يا شعب نيو انجلند ، أخيراً وأخيراً جداً ، أقف حيث كان على أن أقف منذ سبع سنين... » ثم تقبل لحظة الإلهام في المأساة :

فهو يستمر في صهوت رنان « انظروا الى الحرف الأحمر الذي تلبسه هستر ... ان لي أيضاً حرفي الأحمر » .

ثم يمزق الرداء الكنسي عن صدره . فيبدو لحمه وقد نقش عليه حرف ( ز ) باللون الأحمر .

فلما نظر الدهماء اليه نظرة العجب والدهشة والرتاء ، مال برأسه على صدر هستر . لقد أدى حياته ثمناً لخطيئته .

## - ٦ -

ان ( الحرف الأحمر ) ، كمعظم روايات هوثورن وقصصه القصيرة ، تمثل التاريخ الروحي لنيو انجلند . الصراع بين الحب المتطهر للدين ، والدين الوثني للحب . ولكن الكتاب ليس مجرد صورة لنيو انجلند . فانه كذلك

صورة هوثورن نفسه ، ذلك الرجل المتطهر الجسم ،  
الوثني الروح . فان في اشخاص الرواية جميعا شيئا  
من هوثورن . قسوة القضاة الذين عاقبوا (هستر برن)  
على خطيئتها مع ( آرثر ديمسـدال ) وعدم صفح  
(شيلنجويرث) الذي نصب نفسه للانتقام كأنه تجسيد  
لضمير القسيس الشاب . وتردد (ديمسـدال) الذي كان  
يخفى قلبا يemor باللهب تحت رماد العرف الاجتماعي ،  
وتحدى (هستر برن) التي كانت تحمل رمز آلامها وكأنه  
رمز على التكريس يبارك ثوب حبها .

ان هوثورن في كتابه يمثل نوعين من الخطيئة :  
الخطيئة التي يرتكبها الحب ضد العرف الاجتماعي .  
والخطيئة التي يرتكبها العرف الاجتماعي ضد الحب .  
ويرى هوثورن ان الخطيئة الثانية هي اشد الخطيئتين  
نكرا . ان هوثورن الشاعر يحاول ان ينفصل عن هوثورن  
الواعظ . فلقد انتهى اوان التطهر في أمريكا ، ولا بد ان  
ان يحل محله شيء جديد . ولا يدعى هوثورن انه يعلم  
هذا الشيء الجديد على التحديد . ولعله يتمثل في شخصية  
بيرل الصغيرة ، تلك الثمرة البريئة الاثرية غير المتميزة  
للتطهر والوثنية ، جميلة ولكنها سريعة الزوال ، كأنها  
وميض شعاع الشمس يتراءى في حلم ، ولكنها تبشر  
بشيء اكمل واكثر تجاوبا مع قلب العالم من كلا أبويها .  
لقد عاش هوثورن في بواكير التاريخ الأمريكي بحيث لم  
يكتب قصة نضج بيرل الصغيرة . فنهض بهذا الواجب  
قصاص آخر فيما بعد .

يمثل هوثورن عصر انتقال في تاريخ أمريكا العقلي .  
وهو ينتمى الى أولئك المجددين العقليين الذين يحاولون  
الفكاك من أخطاء الماضي . فأخذ في الارتياح في الصورة



الكلونية القديمة للجنس البشرى ، التى تمثل جمهورا من المخلوقات الخاطئة وقع بين نارين ، الأمر بالكدر والعناء فى السماء ، والجلاد القاسى فى جهنم . وكان هوثورن ابن المتطهرين ، وكان أجداده قد شنعوا الكويكرين وأحرقوا الساحرات ، ولكنه كان كذلك أبا الثائرين . فالتحليل النهائى يكشف عن انعطافه الى الضحايا لا الى القضاة او السجّانين . فهستر بيرن هى أنبل أشخاص ( الحرف الأحمر ) وأوفرهم حظا من العطف .

ولكن هوثورن لم يزل يتحسس طريقه . وهو لم يطمئن بعد الى الأرض التى يقف عليها . فهو كأشخاصه يحيا فى عالم غامض بين النور والظلام . فالأشياء غير متميزة والمسافات غير محددة ، والأفق محفوف بالغمم . وليس من حد فاصل تنتهى عنده الأرض ، وتبدأ عنده السماء . غير انه يعرف شيئا واحدا : هو ان أخطاء الماضى ستتحول فتصير آمال المستقبل « فى عصر ازهى ، فى زمن السماء نفسها ، ستكشف حقيقة جديدة لاقامة ( الجنس البشرى ) على أساس من السعادة العامة أكثر صلابة » .

## - ٧ -

ويمكن ايجاز باقى حياة هوثورن فى كلمات قليلة ، حين انتخب (بيرس) لرئاسة الجمهورية ، عين القصاص الذى كان رفيقه فى الدرس قنصلا بليفربول وكان هوثورن يحيا خارج البلاد حياة العزلة عن المجتمع التى كان يحياها فى وطنه . فآلف بين نفسه وبين تاريخ إنجلترا ، بدلا من أن يؤلف بين نفسه وبين شعبها ، فلما انتهت فترة اشتغاله فى القنصلية سافر الى إيطاليا ،

وهناك أيضا عاش في الماضي أكثر مما عاش في الحاضر .  
ثم عاد إلى أمريكا وإلى المكان الذي كان يألفه أشد الألفة ،  
وهو الحدود بين الماضي والحاضر ، كما تتمثل في حياة  
شعب الأقاليم .

وقد بلغ من انغماسه في مشكلات مسرحياته الإقليمية  
أنه لم يكدر يحس بالمأساة القومية التي كانت تمثل أمام  
عينيه . فلما نشبت الحرب الأهلية ، هزكتفيه استنكارا  
وقال « انى أوافق على الحرب ، لكنى لا أدري ماذا  
نحارب من أجله » .

على أنه أيضا كان يخوض غمار حرب — حرب الروح  
البشرية لتخلص من أسر البيئة . وقد صور هذه  
الحرب في قصة ( The House of the seven Gables

وفيهما تنسج خطايا الآباء شبكة تحول بين أبنائهم وبين  
السعادة . وعاد إلى هذه الحرب في The Marble Faun  
وفيهما يبحث إلى الحياة أحد مخلوقات الماضي نصف  
الآدمية ، وسط المشكلات الانسانية الخطيرة في الزمن  
الحاضر . وهو موضوع هوثورن الأثير ، موضوع  
الخطيئة والعذاب . وفي نهاية حياته تماما كان في شغل  
بحرب أخرى لم تنته بعد ، هي حرب الروح ضد أحكام  
القدر في قصة ( دوليفر ) .

وقد حاول في هذا الكتاب أن يهتدى إلى سر الحياة ،  
وهزيمة الموت ، والركب الانساني العالى الذى يمضى  
إلى الخلود .

وكان من سخریات القدر ان هذا القصاص الفيلسوف  
قد مات في نفس الوقت الذى كان يبحث فيه عن الحياة  
الخالدة ( مايو سنة ١٨٦٤ ) .

وانقضى بموته عصر عقلى من التاريخ الأمريكى .



## وليم ماكس تاكرى

( ١٨١١ - ١٨٦٣ )

- ١ -

ولد فى كلكتا ، وفقد أباه وهو فى الخامسة ، فأرسل بحرا الى انجلترا ، ليحيا مع عمته بشزويك ، وكان طفلا غريب المنظر ، أشبه بشمرة اليقطين يحملها عود من اللوبياء ، فقد وضعت عمته قبعة زوجها على رأس الصبى الصغير - وهى قبعة ضخمة شيئا - ولشد ما افزعها ان رأسه مלאها تماما. وأخذته ائى طبيب اسرتها ليفحصه ، فطمأنها الطبيب بقوله : « لاتراعى فللصبى رأس كبير ، ولكنه رأس عامر » .

ومع ذلك فان رأس وليم الصغير ، ذلك الرأس الكبير قد استغرق زمنا طويلا حتى ينضج ، فكان فى مدرسة شارترهوس ( وهى المدرسة التى التحق بها تلميذا فى القسم الخارجى ) فى مستوى يقل شيئا عن مستوى رفاقه . وكتب عنه زميل له فى فرقة الدراسة يدعى جورج فينابلس يقول « مع انه لبث هناك بضع سنين ، فانه لم يبرز فى الفصل ولم ينبغ فى الملعب » .

ومع ذلك فان هذا الفتى الصغير الوديع ، قد أظهر حتى فى هذه الفترة جراءة على الفكاهة الجافة التى سوف يمتاز بها فى قابل أيامه . كتب الى أمه فى كلكتا يقول « انى أحب مدرستى ، فما أكثر الصبية

الطيبين الذين ألعب معهم ، ثم اُضاف استندراكا خبيثا هو : بالمدرسة ٣٧٠ تلميذا ليتهم كانوا ٣٦٩ » .

وكان يكتب بانتظام الى أمه وزوجها الماجور سميث وكان دائما يعترف لهما بمدى كسله اليوم ، ومدى جده غدا . ولكن هذا القدر المجد لم يأت أبدا . وبعد اذ تخرج في مدرسة شارترهوس كان لايزال بحاجة الى تعليم اضافي يعده لكمبردج فقام بذلك زوج أمه - وكان ماجور سميث وزوجته قد انتقلا الآن الى انجلترا - والتحق بكمبردج في فبراير سنة ١٨٢٩ وهنا أيضا عاش عيشة الرجل المرهف الحس المنعزل عن الناس . وقد قال في ذلك أحد مدرسيه : « لو استطاع أحد أن يخرج هذا الفتى عن كسله لكان قادرا على أي عمل اذا أراد ، لكنه لا يريد أبدا »

كانت بلية ثاكري انه لا يستطيع مطلقا أن يركز جهده في شيء واحد . فهو يوما يحب أن يترجم هوراس ، ويحب في اليوم التالي أن يرسم صورةا هزلية ، وفي اليوم التالي يكتب شعرا هجائيا . وكان قليل الاجادة في كل ما كتب . فهو لم يركز جهده في شيء واحد بحيث يبرع في هذا الشيء الواحد . ولا مرأ في انه لم يتوفر على الدرس . فهو بعد عامين يقضيهما في الجامعة تتقاذفه فيهما التيارات . يطلب اليه ان يغادر الجامعة دون الحصول على احدى درجاتها .

وهكذا غادر الجامعة ، وجعل يخبط في الحياة ، فجاب أوروبا وزار المتاحف والمسارح والمكتبات . ورسم صورةا وكتب قصائد . ولاحظ غرور الحياة ورحمتها وجمالها . وهو شاب نحيل صموت من علية القوم . فقد ورث مائة ألف دولار شديد النهم الى المجد بالغ



الكراهة للعمل ، وكان مزاجه يبلغ في تناقضه ما بلغ جسمه ، فله جسم عملاق ووجه طفل لطيف وانف مخرج . وقد كسر أنفه في شجار نشب بمدرسة شارتر هوس وظل مدى حياته مشوها ، وقال ذات مرة مازحا « لولا أنفى المكسور لحصلت على وظيفة عملاق في (سرك) فأنا حينما تقدمت للوظيفة اختبرنى صاحب العرض اختبارا دقيقا ، ثم هز رأسه وهو يقول : أنت شاب طولك مناسب ولكنك بالغ الدمامة » .

ومرت به أيام فارغة وليال عابثة . . ثم تجربة مريرة هي تلك الآلام المتزايدة التى يقاسيها العقل الموهوب . فهو فى لجة تلك التيارات التى تتقاذفه اذ وجد نفسه فى دار ميسر ذات مساء . فرأى ان المغامرة شئ مثير وان يكن مكلفا . وما هى الا بضعة أشهر ، حتى كان قد فقد ماله جميعا . ثم استقر فى حياة العمل الجدى .

## - ٢ -

جرب الفن فترة من الزمن ، لكنه أدرك ان كفايته تقصر به عن بلوغ ما أراد ثم قرر احتراف الأدب ، وكان قد رأى فى أسفاره كثيرا من (المدن والناس) ورأى فى كل مكان جسوما تضطرب الى غير غاية . « انظر ان كل شئ باطل الأباطيل وقبض الريح » لسوف يتوفر على ملاحظة العرض السارى ولسوف يعلق متواضعا على بعض مشاهدده اذا أمكنه ذلك .

والتماسا لهذه الغاية ، شرع يكتب القصائد والمقالات والقصص . وقد رفض معظمها لبرر حسن . ذلك ان ثاكرى كان يكتب لفرضين متعارضين ، فهو يودرى بنى

الانسان بعقله ويهواهم بقلبه . ففشل الناشرون في فهمه ، لأنهم لم يستطيعوا ان يحددوا لونه . فقد جمع أعظم المتناقضات الأدبية . . انه مزدر ساخر قاس عطوف ، يرى سخف الحياة ولكنه يراه خلال ضباب من الاسى .

وكان ثاكرى نفسه قد واجه اسى عظيما في مستقبل حياته العملية ، فقد تزوج « ايزابيلا شو » وهى فتاة ايرلندية حسناء ولدت له بنتين . وقدمت له اشهى مذاق للنعيم حظى به انسان . ثم أصيبت بالحمى ، وشفيت منها جسما وماتت بها عقلا ، وقضت سعادة ثاكرى بقضاء عقلها . فعهد بها الى عناية أسرة صديقة ، وألقى بنفسه في خضم حياة الأندية ولم يكد سيفه « ان نشاطى الاجتماعى لجهد طويل أبدله في سبيل النسيان » .

ولم يعد نشاطه الأدبى ان يكون جهدا بذله طول حياته يلتمس الفكاهة . فهو يضحك من بنى جنسه من اثر وراثته لهم . وان تهكم ثاكرى ليخلو من الضغن فان تكن يده خشنة كيد عيسو فان صوته رحيم كصوت يعقوب .

وهذا سر العناء الذى لقيه في بناء مجد أدبى . فقد عجز الجمهور أبدا عن فهم كاتب يستخدم السبوط ليربت به على الأكتاف عطفاً وراثاً ، وكان أبناؤه أنفسهم حين كبروا يعنفونه على دقة فكاهته واستخفافها . ويسألونه « لماذا لا تكتب فكاهة بسيطة - كفكاهة ديكنز - حتى يفهمك كل الناس ؟ »

وكان ثاكرى يتألم أبلغ الألم لعجزه عن بيع بضاعته الأدبية ، فاذا انسدت بينه وبين المجلات المسالك أنشأ مجلة له دعاها The National Standard



وكان جانب النجاح الوحيد في هذه المفامرة أنها مكنته من السخر بفقلته « لـسكنك لو لم تخبر الففلة قط ، فاستيقن أنك لن تكون حكيما » كما قال في (الارمل لقل) .

لقد فشلت المجلة وظل تاكرى يتعلم الحكمة عن طريق حماقته . وبدأت كتاباته تدريجا تجد لها مكانا في أركان مجهولة من المجلات . وقد وصفه أحد المحررين بأنه مجرد كاتب مقالات ضئيلة ، ولمع من شعر جميل . فرد تاكرى على ذلك بقوله لأرينك انى خير مما تظن .

ولم يفعل الا بعد زمان طويل . وحينما كان ديكنز - الذى يصغره بعام - تشرب نخبه لندن كلها ، كان تاكرى شابا ساخرا مغمورا لا يقرأه أحد « كتب قصة نفيسة عنوانها The Great Hoggarty Diamond فتساءل جون سترلنج : ماذا يفوقها في قصص فيلدنج وجولدسميث » وغضت مجلات عدة من قدرها . وتقدم بطلب ليعين محررا بمجلة Foreign Quarterly Review « - أرجوك أن تفكر في خادمك المطيع الذى يسنطيع حقا ، فيما يعتقد ، أن يؤدى الواجب على أكمل وجه » فألقى طلبه في سلة المهملات ، وعرض أن يكتب سلسلة لمجلة Blackwood's Magazine وجاء في طلبه « أنى

انتمى الى ناديين في هذه القرية واستطيع أن أجمع كثيرا من الأحاديث » ولكن ملتصقه أصاب أذنا صماء . . ياله من عمل مشبط للهمة ، ذلك الجهد العايب لكسب العيش بالقلم . ولكنه لم يتحول عن غايته « ماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ » . وأخيرا وبعد اثنى عشر عاما من الفشل المتصل ، أصاب قدرا يسيرا من النجاح . كان أول تواليفه الناجحة نوعا هو The Irish Sketch Book وبلغ عدد النسخ المباعة من الكتاب ألفا . ولم يكده تاكرى

يصدق عينيه حين قرا الرقم ، فقال في تجههم خبيث  
» أخيرا بلغت من الشهرة ما بلغ ديكنز الذى تباع مائة  
الف نسخة من كل كتاب له .

وفى سقاء الرجل الذى حقق غايته نصح لصديق  
أديب فى إيرلندا هو القصاص شارلس ليفر بأن يحضر  
الى انجلترا ليحرب حظه فيها ومضى الى عرض معونة  
مالية عليه ، وكان هذا العرض - كما وصفه ليفرمتفكها  
- أشبه شىء بأن تعلم صديقك العوم وانت لاتزال  
تجاهد لتبقى رأسك خارج الماء . وسرعان ما افاق ثاكري  
من سكرة النجاح الأولى ، وعاد الى غمرته وحزنه ،  
حدثه أحد أصدقائه مشيرا الى ( ذى إيريش سكتش  
بوك ) قال « لابد انها متعة فائقة ان تؤلف كتابا يحوى  
كل هذه الفكاهة المشرقة ، فقص عليه ثاكري فى جوابه  
قصة صغيرة . حدث ان اتى مريض ذات يوم الى عيادة  
طبيب ليفحصه فقال له الطبيب « انك شديد الهم  
والكآبة ولست بحاجة الا لشيء ينعش روحك ، فلماذا  
لاتذهب الى ملعب التمثيل وتشهد مجانية المهرج  
بلسينلو ؟ » فقال المريض « انى أنا بلسينلو » ان ثاكري  
يضحك - فيما يقول - لأنه شديد الميل الى البكاء « الا  
ما أفكه ما كتبت وأنا أكاد أشنق نفسى » كذلك ذكر فى  
أحد خطاباتة .

- ٣ -

وظل يكتب قصصه وقصائده ومقالاته التى تتسم  
كلها بالفكاهة . وظل الجمهور يجزيه عليها بحفنة من  
البنسات - وبتصفيق مبشر مشيت . والحق ان  
الجمهور لم يكد يعرف اسمه ، فهو فى رغبته الزائدة فى



التشكر قد اتخذ لنفسه عددا من الأسماء المستعارة .  
وكان استخفاؤه في هذه الأسماء المستعارة الكثيرة  
مظهرا جديدا من مظاهر التناقض في شخصيته . فهو  
على ظمئه الى ذبوع اسمه ، قد بذل غاية جهده لاختفاء  
اسمه .

ولكن ثاكري لا يعدم مبررا كافيا لاستخفائه في أسماء  
مستعارة . فهو يقول « ان مطمحي الثاني هو ذبوع  
الاسم . اما مطمحي الأول فهو أصابة رزق أولادي »  
وما كان له ان يكسب عيشه لولا هاتل من المقالات  
يفدقه على المجلات بثمان ضئيل للكلمة « قد يحدث  
للأديب ان الريح الذي يصيبه من جهة واحدة لا يقيم  
أود أسرته ، فعليه ان يكتب في جهة أخرى . فلو كتب  
(برون) مثلا مقالات للصحف اليومية وأخرى في المجلات  
الأسبوعية والشهرية أيضا ، وذيلها جميعا بامضائه ،  
لأضعف قوته باطالة خطوطه » .

وتفاديا للالاحاح باسمه دائما حجب اسمه دائما .  
وان قارئاً ليتساءل في إحدى هذه المرات النادرة التي  
وقع فيها ثاكري مقالا بامضائه الصحيح « من ذلك  
الكاتب الجديد ؟ ان كتابته لأشبه بكتابة الهواة اذا قورنت  
بما يكتب تيتي مارش (1) » .

ان ثاكري قد قارب الأربعين ولما يزل مجهولاً مغموراً .  
وكانت هذه الفكرة تحز في نفسه « يا صديقي امسح  
الأحذية أو نظف السكاكين أو افعل أى شيء غير الاشتغال  
بالأدب » كذلك كتب في إحدى مقالاته لأن الأدب كما ذكر

---

(1) تيتي مارش واحد من عشرات الأسماء المستعارة التي كان ثاكري  
يوقع بها كتاباته . ( المترجم )

في موضع آخر « ليس تجارة ولا مهنة بل هو الحظ  
الأنكد » .

ومع ذلك فلم يتزحزح عن حظه ! لأنكد . لأنه صمم  
على أن يرى العالم أنه « خير مما تظن » وأثمر التصميم  
في عام ١٨٤٧ تلك الثمرة الأدبية الشائقة « سوق الغرور »  
وهي قصة لا بطل لها .

ولم يكن ثاكري مطمئنا أي اطمئنان لقيمة « سوق  
الغرور » ( ليت شعري أتصلح هذه الرواية ؟ وهل  
يقبلها الناشرون ؟ وهل يقرؤها العالم ؟ ) لم تنجح  
القصة في أول الأمر . فقد عرض ثاكري الأبواب الأولى  
على مجلة « كليرن » فرد المحرر إليه المخطوط وقال  
« ان هذا الرجل لا يستطيع كتابة القصص » ورد القصة  
محرر مجلة أخرى وعلق عليها يقول « ان الالفاظ خفيفة  
كأنها ريش من رصاص » ويقول محرر آخر بمجلة  
ادنبرة يدعى « ماكفى ماير » (على المرء أن يكون في غاية  
الحذر من قبول عمل الغرباء على القراء . ففي مجلة  
كمجلة ادنبرة من المهم دائما الاحتفاظ بمستوى عال من  
الاسماء الكبيرة ) .

ورفض « سوق الغرور » كثير من المحررين وناشري  
الكتب قبل أن يقبلها محرر ( بنش ) آخر الأمر .

كان الجمهور بطيئا في التعرف على مزايا الكتاب ،  
لكن النقاد سرعان ما رأوا فيه حدثا جديدا في تاريخ الأدب  
الانجليزى . وكتبت مسز كارليل الى زوجها : « لقد  
استحضرت الأعداد الأربعة الأخيرة من سوق الغرور  
وقراتها أثناء الليل . انها تسحق ديكنز وتمحوه محوا » .

وكتب ( ابراهام هايورد ) في تعليق له نشر بعد ظهور



أجزاء قليلة من القصة يتنبأ بأن « سوق الغرور » قد كفل لها الخلود ، كما كتب الفناء لتسع وتسعين في المائة من القصص الحديثة . وهلل للكتاب كثير آخرون من المعقبين وسلكوه في الروائع ، لكن التقرير الكامل عن هذا الكتاب قد كتبه القصاص (شارلوت برونتي) لزميلها في المهنة ، وكانت روايتها المنشورة حديثاً (جين إير) قد أثارت الاهتمام والاعجاب ، ومع ذلك ففي وسط نشوة انتصاراتها وجدت الوقت والأريحية للاحتفاء بقصة تنافس قصتها ، تستحق في نظرها نصراً أعظم من انتصاراتها . فكتبت في مقدمة الطبعة الثانية ( لجين إير ) « ان رجلاً يعيش في عصرنا يفضل عندي عظماء المجتمع ، حتى لكأنه ابن (املاه) اذ يسبق الملوك المتوجين في يهوذا واسرائيل . انه يتكلم الحق كما كان يتكلمه . عميقا . . يشبه في قوته وحيويته كلام الانبياء ، وعلى محياه طابع الجسارة والشجاعة .

لماذا أشير الى هذا الرجل؟ اني أشير اليه ايها القارئ لأنني ارى فيه عقلاً بلغ من العمق والامتياز ما لم يدركه معاصروه اليوم ، ذلك لأنني أعده المجدد الأول لهذا العصر، وأعتقد ان كتاباته لم تجد بعد من المعقبين من يحلها مكانها الحق ، او يهتدى الى التعبير الذي يصور نبوغه بحق . انهم يشبهونه بفيلدنغ ويتحدثون عن ذكائه وفكاهته وقدرته على الدعابة ، وان تشبيهه بفيلدنغ لن قبيل تشبيه النسر بالعقاب ، ذلك بأن فيلدنج قد يقع على الجيفة . أما ثاكري فلا يقع عليها أبداً . فعقله ناصع ، وفكاهته جذابة ، ولكن كليهما يتصل بعقريته الجادة اتصال مستصفر البرق العايب تحت سحابة صيف شرارة الموت التي تكنها السحابة في أحشائها .

وبعد فاني أشير الى مستر ثاكري واليه أهدي الطبعة الثانية هذه من (جين اير) ان هو قبل التحية من شخص لا تربطه به علاقة شخصية .

كان لابد من قصاص نابغ لفهم قصة «كسوق الغرور» فهذه القصة لا تخلو من بطل وكفى. بل انها من الناحية الفنية تخلو كذلك من خطة مرسومة . فهي صورة صادقة من صور وجودنا الانساني الذي يخلو من البطل والخطة .

ويمكن تلخيص الكتاب كله في مقطوعة واحدة ، كتبها ثاكري بعد نشر « سوق الغرور » ببضع سنوات .

ايه يا بطل الأباطيل  
ما أعبت شريعة القدر  
وما أضعف أساطين الحكمة  
وما أصغر عمالقة العظمة

- ٤ -

ظفر ثاكري الآن بقسط واف من المجد وأصاب عيشا راضيا ، لكنه لما يزل غير سعيد ، فانه كذلك أشبهه بأشخاص قصته في انه دمية في سوق الغرور . . يمتطي أبدا صهوة الطموح البشري في تلك الدوامة المرحية ، هادفا أبدا الى شيء يقصر عن بلوغه . فهو لا يحصل على بيت حتى يتوق الى عربة تجرها جياذ أربعة . ولا يحظى بالعربة ذات الأربعة ، حتى يتوق الى مركز اجتماعي . فاذا أصابه تاق الى مقعد في البرلمان . ويجسر رغم خلوه من كل كفاية سياسية على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم .



وكان من حسن حظه - ولعله من حسن حظ انجلترا - كذلك - أن منعتة روحه المرححة من أن يبالغ في جهاده ليحظى بأصوات الناخبين . كان « لورد منك » يرأس أحد اجتماعاته الانتخابية فقال « فليُنصر الله المرشح الأصح » . فرد عليه ثاكري « لا قدر الله » فهو يعرف في منافسه (ادوارد كادويل) سياسيا ببرعه بكثير، وقد انتخب كادويل وأثبت في السياسة كفاية حقة .

بقى ثاكري للأدب ، وهو الجانب الوحيد الذي يفضل فيه منافسه ، لكن طموحه ظل يدفع به قدما ، فتعاقد على لقاء سلسلة محاضرات ليصيب للأطفال رزقا، وقبل كل دعوة وجهت إليه مهما يكن نوعها ليستمع إلى متعلميه « فان هذه المأدبة من المديح المفرق ليزيد في التذاذي أياها انها جاءت بعد مجاعة طال أمدها » .

وزار أمريكا مرتين فعاد مثقلا بالتشريف وعسر الهضم « اما وقد أصبت مالا لأطفالي الأعزاء ، فقد زال القلق من حياتي واستطيع أن أتنفس حرا فترة من الزمن » .

لكنه لا يتنفس في هدوء وحرية ، فهو مقيم على قلقه وعلى شغفه بأن يبلغ ما لاسبيل إلى بلوغه . فان عليه أن يستبدل بعربيته مركبة أفخر وأن يستبدل بتابعه موكبا من الخدم ، وأن يستبدل ببيته الصغير قصرا ريفيا . يجب أن ينافس نبلاء ( سوق الفرور ) في ذلك السباق المجنون ، فهو يكتب إلى أمه « ان توم كارليل يعيش معيشة تامة الجلال في بيت صغير ( بشلسي ) استأجره بأربعين جنيها . به خادم اسكتلندية عبوس تفتح الباب الذي يطرقه خيرة رجال المجتمع الانجليزي » فان مجده المنزوي ليس مما يروق ذوقه ، فهو يريد ليكون من رجال المجتمع « انظر إلى شهرة ديكنز » أن

عليه هو أيضا ان يكون نجما يتسأل في ندوات العالم وحاناته ، انه يتوق الى ان يربته لورد (فلامدودل) بيده في ود ، وان تبسم له ليدي (فلامدودل) ابتسامتها تلك الاليفة الكريمة الحبيبة ، وان يتهامس به الخدم معجبين اذ يقدمون اليه الطعام في حفلات العشاء التي تقام لتكريمه . وكان يحلو له ترديد قصة الخادمين الأيرلنديين اللذين استرق اليهما السمع اذ كان يتعشى في سالت لويس ، فقال أحدهما « أتدرى من يكون هذا الرجل ؟ » « كلا . أخبرني من يكون ؟ » « انه ثاكري الشهير » « وماذا فعل ؟ » « لست أدري الا انه رجل عظيم » .

وكلما كتب قصة جديدة جعلت عظمته تزداد ، وجعلت السنة الناس تلهج بتمجيده ، وان كانوا لا يدرون السبب . ذلك بأن كل الناس كانوا يعجبون به ، وان لم يقرأه منهم أحد ، كما قال ناقد من معاصريه ، حتى ان أروع قصص ثاكري .. قصة (هنري اسمند) التي كتب عنها ناشره الأمريكي (جيمس فيلدس) يقول « اني أظاھر ذلك الكتاب وأقف الى جانبه ، واني على استعداد لأن أحمله حيثما أتنقل كأنه بطاقتي الشخصية » حتى هذه القصة قد وصفت بأنها أجمل قصص الأدب الانجليزي وأقلها حظا من اقبال الناس على قراءتها . كان الجمهور يلتهم التعليقات ، ويتحدث عن أشخاص الرواية ، ويمجد المؤلف ، ويشترى الكتاب . ثم يتركه على نضد المكتبة دون أن يقطع ما بين أوراقه .

فلنقطع نحن ما بين أوراقه ، ولنلق نظرة خاطفة على قصة (هنري اسمند) . في أواخر أيام أسرة (ستوارت) كان يقطن منزل ليدي (كسلوود) صبي ضئيل ، كثير التفكير ، اسمه هنري اسمند .. وهو كما يعتقد كل



الناس ابن طبيعى للكونث توماس كسلوود . فاذا شب الفتى الصغير ، عهد بتربيته الى الاب الجزويتى (هولت) وكان المشير الروحى لأسرة كسلوود .

ووافى الأجل عميد الأسرة وهو يعمل فى خدمة الملك المخلوع جيمس . وصارت عمادة الأسرة الى فرانسيس كسلوود . وارتضى هنرى اسمند تغير الوضع . بطريقته الهادئة المفكرة . فهؤلاء سادة جدد وتلك أعباء جديدة . وهذه فرصة عظمى جديدة . فان ليدى كسلوود ، تلك الشابة الجميلة التى تبدو أشبه بابنة لفرانسيس منها بزوجته ، كان بها ميل يعطفها الى هنرى ، وكان هنرى يكن لها شعورا أقرب ما يكون الى العبادة . وأصبح يحب ابنتها (بيترىكس) وابنها (فرانك) حب الأخ الوامق .

وفى أول الأمر كان السلام يرفرف على أسرة كسلوود . ثم حل بها أسف وأسى فان اصابة بالجدرى قد شوهدت وجه ليدى كسلوود ، فوجد زوجها عزاءه فى أحضان امرأة أخرى لكن فتور الكونت نحو زوجته لا يمنعه من أن يفار حين يحاول التودد اليها رجل آخر يقال له لورد موهون ، فتحدى لورد موهون الى المباراة ، واذا كان هنرى قد بلغ مبلغ الرجال فقد حاول أن يحارب مكان سيده . لكن الكونت عقد العزم على الثأر لنفسه بنفسه . وفى المباراة قتل واعترف الكونت قبل موته مباشرة ان هنرى اسمند هو الابن الحقيقى لتومس كسلوود . لذا هو المالك الشرعى لأمالك كسلوود ، لكن اخلاص هنرى لليدى كسلوود ورلديها كان أعظم من حبه للمجد الشخصى . فأحرق الاعتراف وظل خادما فى المنزل ، بل ظل خادما بغيضا أيضا . فانه لمستلق اثخنه الجراح التى أصابته فى المباراة اذ تهمه ليدى

كسلوود بأنه هو الذى جلب الموت على زوجها . ولا يقوى  
هنرى على احتمال الحياة فى تلك الظروف ، فيتطوع فى  
الجيش ويحارب ويصاب بجراح تحت إمرة مارلبورو ،  
ثم يرقى تدريجاً حتى يصل إلى رتبة القائم مقام ، ويصبح  
ياورا للجنرال ( وب ) .

وأخيراً يقابله معلمه الأب هولت وهو يحارب فى الأراضى  
الواطئة ، فيخبره القسيس بحقيقة أصله . فان أبا  
هنرى ، الكونت توماس كسلوود ، قد تزوج من أمه -  
وكانت ابنة نساج - ثم هجرها . وقد توفيت فى دير ،  
وأخذه أبوه إلى منزله كما يؤخذ اللقيط ليربى صدقة  
واحساناً .

ولكن هنرى مابرح يحتفظ بسر أصله لا يبوح به لأحد .  
فواجبه إلا يؤذى من يحب . وان كانوا لم يعودوا يبادلونه  
الحب . وكان يصلى ذات يوم بكنيسة ونشستر ففرح  
بأن دعاءه قد أجيب . فان ليدى كسلوود لتقف هناك  
قبالته . ولا تلتقى عيناهما حتى يعاود قلبيهما ذلك  
الود القديم .

وتعود الآن إلى قلب هنرى اسمند عاطفة جديدة .  
فقد أحب بيتريكس حبا قاهراً غلاباً . وهى الآن فى  
السادسة عشرة من عمرها تعمل وصيفة شرف بالبلاط  
الملكى . وهى عادة غنجة مدللة كأفتن الفيد اللائى صدعن  
قلوب الرجال ، وظل هنرى عشرين لآلئاً عنها آماله .  
ولا جدوى . فليس بها أقل ميل إلى هذا الجندى الذى  
لا مال لديه ولا لقب . بينما كثير من رجال الحاشية  
اللامعين قد خفضوا الجناح لنار سحرها فاستشباط  
منهم الجناح . فيجد حب هنرى القديم لآل كسلوود  
مخرجاً جديداً وقتئذ . هو الولاء لأخى بيتريكس ويدعى



فرانك . وهو صبي يشابه اخته في الاغضاء عن العواقب  
والسحر والجازبية . حارب معه هنرى وحماه في معارك  
كثيرة . وتوفر على تربيته . واهتم اهتماما ابويا لا يخلو  
من توجس بزواجه من نبيلة هولندية تكبره كثيرا في  
السن .

في تلك الاثناء كانت بيتريكس ماضية في مسلاتها التي  
لاتخلو من املال .. مسلة تحطيم القلوب . ووصلت  
الآن الى تحطيم قلبها هي . فهي تجاوز ربيع جمالها  
مسرعة وتظل على ذلك غير متزوجة . كان الرجال يهيمون  
بها عشقا ثم يخطبونها ثم يتركونها في طلب صيد أصلى .  
ولكنها اقامت على رفضها هنرى اسمند رجاء أن تصيب  
خيرا منه .. وأخيرا وجدت ضالتها المنشودة .. في  
دوق هملتون وهو أرمل له من المكانة والعمر ضعف مالها  
من المكانة والعمر ، واستسلم هنرى اسمند لمصيره ،  
وقدم لها هدية زواج عقدا من الماس جميلا كان قد  
أخذه من ليدى توماس كسلوود ، زوجة أبيه (الثانية) .

لكن دوق هملتون يرفض الهدية . ويصر على ألا  
تقبل عروسه هدية من رجل ليس له لقب ولا جاه .  
فأجابت أم بيتريكس وقد تولاهما الغضب : « انه صاحب  
لقب فهو الابن القانونى للكونت كسلوود ، وهو الوارث  
الشرعى لأملاكه وما نحن الا صنيعه احسانه » وشرحت  
السيدة النبيلة كيف سمعت قصة أصلى هنرى من  
الكونتيسة العجوز . وان هنرى لم ينبس ببنت شفة  
عنها لاي انسان . وكانت ليلة زفاف بيتريكس الى دوق  
هاملتون . فقامت مباراة بين الدوق واللعنة التي صبت  
على آل كسلوود من قديم ، متمثلة في لورد موهون ويقتل  
هملتون في المباراة وتترك بيتريكس وحيدة مرة أخرى .

لكنها لاتزال ترفض هنرى . فان رجلا آخر يهفو لها ويميل .. وهو خير ما تهيأ لها من صيد .. هو الأمير ستوارت الشاب الذى يطالب بعرش انجلترا . ولكن الأمير كان يحب أن يتخذها خلية لا حيلة ، وكان هنرى اسمند وفرانك كسلوود ، أخو بيتريكس من أنصار الأمير ستوارت . فاذا عرفا نوايا الأمير حطما سيفيهما ولعنا الأمير وتركاه لنهايته السيئة .

فاذا هرب الأمير وبيتريكس الى فرنسا كان جو لندن يتجاوب بالصيحة المكهربة « ماتت الملكة آن . يحيا الملك الجديد جورج هانوفر » أما هنرى اسمند والسيدة كسلوود فقد تاب كل منهما الى صاحبه يلتمس العزاء والسلوى وأثمر العزاء والسلوى حبا وزواجا . فان حب السنين الخوالى قد بعث جديدا « ذلك بأن الحب القديم هو الحب الجديد وهو خير حب » .

## - ٥ -

كانت خبرة ثاكرى بالحب القديم أشبه بخبرة هنرى اسمند بالحب القديم ذلك ان ديكنز كان من أقدم أصحاب ثاكرى وخيرهم . ولكن نشب بينهما خلاف . وان المتنافسين فى الأدب لتكفى شرارة لأن تلهب بينهما نار الشقاق .. وظل الصديقان سنين طويلة لا يتبادلان الحديث . ثم حدث ذات مساء ، وكان ثاكرى قد بلغ الثالثة والخمسين ، ان تقابل الرجلان على درج الاثنيون فمد ثاكرى يده مندفعاً ليسلم على ديكنز . ورد ديكنز عليه التحية .. واختفى بينهما الخصام القديم .

وكان ثاكرى قد علم ان من واجبه الاسراع بتوديع



صديقه القديم . فما هي غير بضع ليال حتى أقبل يوم  
٢٣ ديسمبر سنة ١٨٦٣ ، فذهب ثاكري لينام نومته  
الآخرة .

لقد نادى المدرس اسمه من الثبت فأجاب ثاكري في  
دعة ، كما أجاب الكولونيل الحبيب نيوكوم في إحدى  
رواياته « لبيك » .

## شارلز ديكنز

( ١٨١٢ - ١٨٧٠ )

- ١ -

كانت دنيا شارلز ديكنز هي دنيا الأطفال أولى الظرف والطيش والتعثر والخبث والدعابة والتفاؤل . وكان هو واحدا من هؤلاء الأطفال .

ولسكن طفولته الشخصية كانت خلوا من الدعابة والتفاؤل . كان ضئيلا عيلا قد ساءت تغذيته ، تصيبه بين الحين والحين نوبات من التقلص ، فقال أبوه « لن يعيش هذا الطفل حتى يقاسى المرارة التى يقاسيها الكبار » .

وكان أبوه يقاسى المرارة دائما ، وكان يتقاسمها مع أسرته فى سخاء وجود ، كان كاتباً فى ميناء (برتسى) ، يكسب رزقه فى بطء فائق ، وينفقه فى سرعة فائقة فكان عليه دائما أن يسبح فى بحر من الدين يرتفع مده أبداً .

فاذا بلغ شارلز عامه الثانى نقل أبوه الى لندن . ومعنى هذا ارتفاع يسير فى مرتبه وزيادة كبرى فى وجوه اتفاق هذا الراتب . ومما زاد الطين بلة ان جون ديكنز لم يكن خليعاً مستهترا وحسب . بل كان كذلك مخصباً مكثراً . فما مضت بضعة أعوام حتى اخرج الى الوجود ثمانية أطفال .



وأحال مسئولية اعالتهم الى رب رحيم . أما هو فقد لاذ بالأمن والسلام في سجن المدينين في (مارشلسي) .

في مثل هذه البيئة لم يكن أمام شارلز فرصة للتعليم المنظم . فتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب على ركبتى أمه . وتعلم قليلا من اللاتينية في مدرسة يملكها القسيس (جيلز) . وكان يزور المسرح من حين لآخر في حراسة ابن خاله (جيمس لاميرت) وحين بلغ الحادية عشرة كان قد انتقل من التعلم الى التكسب .

وكان في أول أمره يربح بضعة بنسات من غناء هزلي للمصطافين في (ليم هاوس) قال أحد المبتهجين من عامة الناس في لندن « ألا ما أشد غرابة هذا الصبي » . غير أن شارلز كان يضيع مواهبه في جوب الآفاق . فالفناء لايدر مايكفى أولئك الذين عبس لهم وجه العالم . لذا وجد له أبوه - بمعونة جيمس لاميرت - عملا أكثر مادية . عمل لاصق للأشرطة بمصنع للدهان الأحذية في (هنجر فورد ستيرز) .

وكان عملا كثيبا مملا يتطلب الوقوف بواجهة المصنع للصق الأشرطة ، من مشرق الشمس الى مغربها ، بينما تقف حشود المارة تعلق على الصبي الصغير ذي الأصابع الرشيقة . لكنه كان يشعر في آخر الأسبوع انه رجل غنى بذلك المرتب الخيالي ( ستة شلنات ) أى نحو دولار ونصف . وكان ينفق منها بنسين . وما أبهظه من ثمن . . في شراء قطعة من الحاوى البائثة ، ويحمل باقى المبلغ الى أبويه . فاذا كان يوم الأحد خرج للنزهة مع أبيه ، وكان قد أطلق سراحه من سجن المدينين حينذاك فيدعان حياة الجزء الخشن من لندن الى عالم الخيال وكان يروقه في أرض الخيال بحى الأغنياء قصر فخم

فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ « أَنْتَ أَنْ تَتَأَبَّر وَتَجِدُ فَقَدْ تَقَطَّن هَذَا الْقَصْرَ يَوْمًا مَا » .

فَقَالَ شَارْلزُ فِي نَفْسِهِ « يَا لَهُ مِنْ حَلْمٍ مُسْتَحِيلٍ التَّحْقِيقِ » .

## - ٢ -

وَكَلَّمَا عُلَّتِ السَّنُ بِدِيكَنْزِ زَادَ جَدًّا وَمُتَابِرَةً وَطُمُوحًا ، وَهُوَ أَنْ أَعْجَزَهُ أَنْ يَعْيشَ فِي أَرْضِ الْخِيَالِ فَعَلَا ، فَلَعَلَّهُ مُسْتَطِيعٌ خَلَقَ أَرْضَ خِيَالِيَّةٍ ، فَقَرَّرَ الْإِسْتِفَالُ بِالْأَدَبِ .

وَبَدَأَ حَيَاتِهِ الْأَدِيبِيَّةَ بِأَنْ أَسَّسَ وَحَرَّرَ جَرِيدَةً فِي ( أَكَادِيمِيَّةٍ وَلَنْجْتِنِ هُوسِ ) وَهِيَ مَدْرَسَةٌ كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا فِي فُتْرَاتٍ قَصِيرَةٍ تَتَخَلَّلُ عَمَلُهُ . وَكَانَ هُوَ أَيْضًا مُتَعَهِّدَ الْبَيْعِ لِجَرِيدَتِهِ . فَعَدَّ نَفْسَهُ رَجُلًا مِنْ أَنْجَحِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ ، أِذَا كَانَ يَبِيعُ مَجَلَّتَهُ ( بِالْبِلْيِ ) وَقَطَعَ مِنْ أَقْلَامِ الْأُرْدُوَازِ . لَكِنْ أَبُوهُ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَتَعِيشَا بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنَ الْبِلْيِ وَأَقْلَامِ الْأُرْدُوَازِ . فَأَخْرَجَاهُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ( فِي عَامِهِ الْخَامِسِ عَشَرَ ) وَالْحَقَّاهُ بِمَكْتَبِ مَحَامٍ .

وَلَكِنْ دِيكَنْزُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالْمَحَامَةِ ، فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَكُونَ أَدِيبًا . فَعَلِمَ نَفْسَهُ الْإِخْتِرَالُ « وَآخِذَ بِسَجَلِ مُشْهَدِ الْكُونِ ، مُشْهَدِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَلْهَثُ طَرِبًا وَصُخْبًا » وَصَارَ يَشْتَغَلُ فِي عَامِهِ الْعِشْرِينَ فِي النَّهَارِ مَرَاثِلًا بِرِغْمَانِيَا ، وَيَكْتُبُ بِاللَّيْلِ صُورًا خِيَالِيَّةً مِنْ حَيَاةِ لَنْدُنِ . وَكَانَ يَمُهرُ هَذِهِ الصُّورَ بِتَوْقِيعِ ( بُوَزِ ) .

وَقَدْ نُشِرَ بَعْضُ هَذِهِ الصُّورِ بِلا أَجْرِ فِي صَحِيفَةٍ يُقَالُ لَهَا الْمَجَلَّةُ الشَّهْرِيَّةُ .

وَيَعْدُثُنَا عَنْ نَفْسِهِ حِينَ رَأَى أَوَّلَى قِصَصِهِ بِتَوْقِيعِ



( بوز ) مطبوعة منشورة . انه ولى وجهه شطر قاعة  
وستمنستر » ولبت فيها نصف الساعة ، فان عيني  
قد أغشاهما السرور والزهو بحيث لا يَحتملان ضوء  
الشارع » .

وكان (بوز) الشاب يحيا في هذه الأيام حياة ممتعة  
مليئة بالحوادث زاخرة بالجهد الذى لا يكل . فهو في  
ساعات العمل أعنف المزاحمين وأشدّهم مراسا . وهو  
في ساعات اللعب أكثرهم بشاشة وأوفرهم مرحا . ويقول  
عنه لى هنت ( وقد أخذه العجب ) « أى وجه ذاك الذى  
يلقاك به في حجرة الاستقبال . ان به من الحيوية والروح  
مثل ما في خمسين انسانا مجتمعين » .

ومع ذلك فان ما في وجهه من الحيوية والروح ، أو  
قل ان ما في جيبه من المال لم يكن يكفيه كسب الشخص  
الوحيد الذى يحبه ويؤثره على كافة الناس . وهو ابنة  
أحد مديرى المصارف ، ماريا بيدنل « ان ديكنز شاب  
لطيف لكنه اديب ، فهل يستطيع ان يعولنى بقلمه !! » .

وهكذا فقد ديكنز ماريا ، فتزوجت رجلا أغنى منه  
لم يلبث أن أفلس بعد أعوام قليلة . وثابر ديكنز على كتابة  
القصص فأصبح من أغنى رجال انجلترا .

### - ٣ -

وقد نزل أول الفيث على ديكنز في أوائل الحلقة  
الثالثة من عمره . ذلك بأن ( صوربوز ) قد لفتت اليه  
أنظار الناشرين « شابمان وهول » فتعاقدوا معه على  
كتابة تعليقات شهرية حول صور هزلية يرسمها الفنان  
الشعبى روبرت سيمور . وقد طلبت هذه التعليقات

كما يطلب ركن تقليدى محرو بالاجر . لكن هذه التعليقات  
التي جرى بها قلمه ، قد استحالت الى أوراق بكوك  
الخالدة . ولم تجد الأعداد الأولى من (أوراق بكوك) كثير  
رواج . لكنها بعثت فيه الشجاعة على ان يتزوج مختارته  
الثانية من النساء ، كاثرين هوجارث .

ثم أصابته صدمة مفاجئة ، هي انتحار روبرت  
سيمور ، ثم ومضة مفاجئة من ومضات السعد . اذ  
صار الرسام الجديد هابوت نيث برون الذي يوقع  
باسم : ( فز ) .

وكتب النجاح لأوراق (بكوك) منذ ذلك الحين ، فقد  
تعاون (بوز) و (فز) تعاوناً تاماً ، وصار كل منهما يستفز  
صاحبه الى قمم من اللغو السامى ، فألفت مقطوعات  
تبكى اذ تضحك وتضحك اذ تبكى .

ولقد اضطر كذلك ان يبكى اذ يضحك حين كتابة  
أوراق بكوك . ذلك بأنه فقد ماري هوجارث شقيقة  
زوجه التي كانت تقيم معها منذ الزواج . فظل شهرين  
لايستطيع مواصلة كتابة سلسلته . وقال الناشرون  
يفسرون تخلفه « منذ ظهور العدد الأخير من هذا المؤلف  
منى الكاتب بفقد شابة من اقربائه عزيزة جداً عليه ،  
تربطه بها صداقة وثيقة ومودة وطيدة ، وكانت صحبتها  
عزاء له في كده زماناً طويلاً » .

ولم يبرأ برءاً تاماً من حزنه ، حتى ان كل ما كتبه  
من مشاهد الموت فيما بعد لا يعدو ان يكون بعثاً للجرح  
القديم . فاذا عاد الى أوراق بكوك كان شيخاً حزيناً  
حكيماً في الرابعة والعشرين من عمره .

وكان هوى لندن . فقد زينت المدينة بقبعات بوز ،



واربطة بكوك ، وقماش سام ولر . كتب أحد المعاصرين  
« ليس في انجلترا مكان الا ولجه (بوز) فكتور بنيامين  
برودي يصطحبه في عربته من مريض الى مريض ، ولورد  
دنمان يطالع بكوك على المنصة بينما المحلفون يتفكرون» .  
ويقول رجل لقسيس وقد أوشك على الموت « احمد  
الله . انى أستطيع الموت فى سلام ، فقد فرغت لتوى  
من قراءة الحلقة الأخيرة من بكوك » .

وكان من أثر ذبوع شهرته ان أغرقه الناشرون فى  
بحر من العقود . فتعاقدوا معه على كتابة المقالات  
والأقاصيص والقصص . وكان يقبل كل شىء «فما أقصر  
الحياة ، وما أزر مخيلتى بشخصيات تضرع الى أن  
أخرجها الى الحياة» وكان الاجهاد يقتله . فانه يكتب  
فى عام واحد ، وآن واحد ، ثلاث قصص طويلة ويحرر  
مجلة ، ويخط فى ساعات فراغه مسرحية غنائية قصيرة  
ورواية فكاهية .

ويقفز فى المساء قفزته الحبيبة الى المجتمع . . لا  
مجتمع النبلاء ، بل مجتمع المثقفين الذين هم فى الأرض  
بمثابة الملح فى الطعام . ومن أمتع ما رسم ديكنز من  
الأشخاص شخصه الباسم كأنه زهرة متفتحة فى حجرة  
الأضياف ، وقد تألق فى صدره الزرقاء الفاتحة  
وسرواله الأزرق الفاتح ورباط عنقه القرمزى ، وعينه  
اللتين تشعان على كل فرد وعلى الجمع نورا ينطق  
( الا فليبارك الله ) .

لقد أحرق شمعة حياته من طرفيها جميعا ، وأبهجه  
شهود الوهج ، وأسرف على ماله وصحته ، وأكثر من  
كتبه ، وزاد من شهرته وضاعف من عدد أسرته ، لكنه  
ضاعفها من امرأة لا يحبها . ولم تكن كاترين دميمة

الجسم ، بل كانت خرقاء العقل غافلة . فهي تحك ذقنها في كل كرسى تمر به . وتثور لدواع تافهة . وترتاب في صاحبها . وتنتابها ثورات مفاجئة ليس لها مبرر . ويقتضينا الانصاف ان نذكر ان هذه الصورة هي مانراه بعينى ديكنز .

ولاريب ان لديها ماتقوله لكنها - وا أسفاه - لم تؤت براعة زوجها في عرض وجهة نظره . ومع ذلك فلا بد في زوجة رجل نابه عبده نساء انجلترا أجمعين من ان تكون على حظ من اللباقة غير عادى . ولم يقسم هذا الحظ لكاترين ديكنز .

ومهما يكن من سبب لهذا الشقاق بين الزوجين ، فقد كان على ديكنز ان يمزج بحساء النجاح الدسم مرارة الشقاق الزوجى . ورضى عن طعم هذا الحساء وواصل عمله .

#### - ٤ -

وقام في عامه الثلاثين برحلته الأولى الى امريكا . . وقد بدأت هذه الرحلة بشوق وتلهف من الطرفين ، وانتهت بالجفاء وخيبة الأمل من الطرفين .

فبعد ان جال جولة مظفرة بين المحاضرة وحفلات العشاء وتهليل الناس له في بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وبلتيمور وواشنطن وغيرها من المدن الأمريكية الكثيرة ، أخذ يتبدى له العالم الجديد ، وأخذ هو يتبدى للعالم الجديد ، مهرجا عاطفيا محتالا . فالإلفة بينهما اثمرت الازدراء المتبادل . وكان كلاهما يميل الى التهويل في أخطاء الآخر . فهو يقول لقد تعود الأمريكيون الاسراف



في البصق ثم يقول في وصف ما شهد مرة في أثناء رحلة بالقطار ( لقد طارت قذائف من البصاق في استمرار متصل من النوافذ على طول الطريق حتى بدا كأن حشايا من الزغب قد فتحت من وراء النوافذ ، فعصفت بها الريح ) وتشكو أمريكا ديكنز هي الأخرى فتقول : ( انه يعض اليد التي تصب المال في جيبه صبا ، فياله من طفيلي كفور ) .

واذا كان كلاهما يهول في عيوب الآخر ، فان لكليهما كثيرا من الحق في شكاته . فلقد قاسى ديكنز من قرصنة الناشرين الأمريكيين ، لأن قانون الملكية الأدبية الأمريكي قد سمح بنشر كتبه في هذه البلاد دون أن يدفع له مقابل . وهو يشير الى هذا الاجحاف في كثير من محاضراته فيعترض سامعوه على اثاره مشكلة شخصية في اجتماع عام . لذلك كان فراقه أمريكا داعيا الى ان يتنفس الجميع الصعداء . وقال أحد المعجبين به مازحا ( أود أن يكون مسٹر ديكنز والأمريكيين فرحين بهذه الصفقة ) .

عاد ديكنز الى انجلترا يخوض سلسلة طويلة من المعارك من أجل المستضعفين والمعذيين في الأرض، وكانت معارك بهيجة ، خاضها بسلاح القصص ، بقلم ساخر وقلب شاعر . جعل يعنف ويلوم ويمتع ويهدد وينذر ويفرى الحكومة الانجليزية بالاصلاح اثر الاصلاح .

ويقول ثاكري في شيء من التعلل الجاقد ان قصص ديكنز قد كتبت لقوم كبار ، لهم عقول الصفار، فيشكره ديكنز على ملاحظته تلك ويقول ( هــهـهـه هي الحقيقة بالضبط ، فاني اكتب لبنى الانسان ، وهو جنس اميل الى الفناء منه الى الشر ) .

واذ كان الرجال اطفالا ملتحين فحسب ، فانك تستطيع  
ان تثير ضحكهم من حماقتهم ، بأن تريهم معرضا هزليا  
لصورهم في مواقف خرقاء . وان الجولة في قصص ديكنز  
الاشبه بجولة في معرض للمرايا المحدبة والمقعرة ، ارايت  
الى كل هؤلاء الناس ومهازلهم المضحكة : ميكوبر ، بكوك،  
ولر، سارخنت بوزفوز، شارلس شريبيل ، سميك ،  
سميرز، كويلب ، سكروج ، ديك سويفلر، بوب كراتشيت،  
توم بنش ؟

وهل هؤلاء الا انفسنا كما تتراءى في مرايا المعرض ؟  
ان اسماءنا نفسها تنقلب وتنعكس فتأخذ اشكالا  
مضحكة . لكن ياله من وصف صادق ، ويالها من صور  
خالدة لن تمحى من ذاكرتنا . انظر اليه كيف يستطيع  
في كلمات قليلة ان يخلد صورة لرجل « لقد ظل ( جون  
شزلوت ) يحشد كل نفيس في خزانة منيعة ، حتى حشد  
جثمانه غير النفيس في خزانة منيعة ، هي التابوت » .

لقد قيل ان انجلترا قد انجبت اثنين من اكبر فناني  
العالم ، هما « رينولدس » راسم الجسم البشرى ،  
و « ديكنز » الراسم الهزلى للروح البشرى .

- ٥ -

لكن ديكنز كان اجل من رسام . فهو قصاص بارع ،  
ينسج خطة القصة في سهولة اثارت حقد ثاكري الذي  
كان يفوقه من حيث الفلسفة ويقصر عنه من حيث الخيال  
« عبثا احاول سبق هذا الرجل او محاذاته » كذلك  
قال يوما مؤلف سوق الفرور « انى لا أستطيع ان المسه  
او الحق بفباره » .

- ٥ -



على ان شتى قصص ديكنز يوجد بها شيء من حياته .  
قال أحد معاصريه : « لكأن هذا الرجل قد شهد كل  
مكان وعرف كل انسان وشاركه تجاربه » . فكل قصة  
تشير الى رحلته في العالم جسما وروحا . ويصدق هذا  
الوصف على قصص شارلز ديكنز عامة ، وعلى دافيد  
كوبر فيلد خاصة . قال ديكنز : ان شئت ان تعرف  
سيرتى فاقرا دافيد كوبر فيلد .

لكن يجب ان نؤكد ان هذا الكتاب هو رواية خيالية  
لحياته « اما التفصيلات الحققة لحياتى فأحتفظ بها  
لنفسى » كذلك قال لمن نقل دافيد كوبر فيلد الى الفرنسية  
فدافيد كوبر فيلد : صورة هزلية لديكنز كما يرى من  
خلال عبقريته المازحة . ان الأحرف الأول نفسها لدافيد  
كوبر فيلد ( D. C. ) هى مقلوب الأحرف الأولى لشارلز  
ديكنز ( C. D. ) وكان دافيد من أبناء الفقر كما كان  
شارلز ، لكنه يخالف شارلز في انه اضطر الى العيش  
مع زوج أم قاس يدعى ( ادوارد ميردستون ) فاذا بلغ  
دافيد وشارلز سن الحادية عشرة ، أخذ كل منهما يعمل  
في مصنع لدهان الأحذية . وهنا أيضا يختلط الخيال  
بالحقيقة . فان دافيد ابان اشتغاله بالمصنع يساكن  
مستر ( ولكنز مكوبر وزوجته ) وسلالتهما من صغار  
الأطفال . وكان منزل مكوبر هو فى الحقيقة منزل أسرة  
ديكنز وولكنز مكوبر هو أبو شارلز . وهو رجل محبوب  
قليل الحول ، عنيف ، يؤمن ايمانا أعمى برحمة السماء .  
رجل يتوقع ان يأتى الخير بغتة ، ولكنه لا يحرك قط  
اصبعه ليعين على اتيانه . وقد ضيق عليه دائنوه الخناق ،  
حتى القى به فى غيابة سجن المدينين . ويتكرر وقوعه  
فى قبضة مستغلين لا يتورعون . وتمكن أخيرا بمعونة خالة

دافيد من ان يبدأ حياة جديدة في استراليا ، وكان هذا أغلب الظن هو ما يتمنى شارلز ديكنز ان يقع لآبيه . . ان يكون سالما معافى محبوبا ، لكنه بعيد عن بصره ما أمكن . لأن جون ديكنز ، كان لاينى عن تبديد مال ابنه وبعث القلق والارتباك فى عقل هذا الابن .

وباقى القصة أيضا نسيج بارع يضم الحقيقة والخيال . فدافيد - كشارلز - يشتغل كاتباً لدى أحد المحامين ، ويتعلم الاختزال ويصبح كاتباً ناجحاً ، ويتزوج من امرأة ضئيلة لطيفة فاترة العواطف .

وهنا يقف التشابه بينهما مرة أخرى . فدافيد يفقد زوجته ويبنى بامرأة أكثر ملاءمة له . وهذا ما قد يفسره المحدثون فى تحليل النفس بأنه تحقيق رغبة لشارلز ديكنز .

أما باقى القصة . وهو زواج الخادمة ( بيجوتى ) للحوذى (باركيس) المطواع أبداً ، ونفاق وافتضاح (أورياهيب) وخيانة اميلى الصغيرة وموت حبيبها (هام) حين يحاول انتقاذ خائناتها (ستيرفورت) الذى خانها لما تحطمت السفينة . . فكل هذه الفصول والشخصيات مبعثها الجانب الخيالى من حياة شارلز ديكنز . . ومع انها خيالية ، فان هذا لا يفض من صدقها عند المؤلف . فانه من الصعب أن نرسم الفواصل بين الخيال وعقل الفنان المبدع . وان ديكنز ليقول « أنى أحيأ مع كل شخصية من شخصيات قصصى » .

- ٦ -

وكلما علت به السن ، زاد حبه لصحبة الناس . فلقد

- ٦٢ -



صارت حياته دوارة من تلك الدورات المثيرة للمرح ،  
فهو أبدا يؤلف كتباً جديدة ويعقد صداقات جديدة  
ويتعلم في الرقص خطوات جديدة .

وتحدثنا ابنته انه تعلم مرة خطوة معقدة صعبة .  
فاذا كان منتصف ليلة باردة قفز من مخدعه وأخذ يدرب  
نفسه عليها في مصاحبة نغمات صفيره ، مما أثار عليه  
أفراد أسرته الذين ايقظهم من سباتهم .

انه طفل غير مسئول ، فيه قلق وفيه تقلب وفيه  
اسراف . ما أسرع ما كان يرد اليه المال وما أسرع ما  
كان يصدر عنه . كان يدرى ان حياته دوار سكرى .  
وكان يبتهج لذلك فهو يقول في تباه واعتزاز . ان ثلاثة  
ارباعى جنون والربع الباقي هذيان . وان عقله الذى  
جاء من الآفاق ما لم تستشرفه معظم العقول الأخرى  
قد دخل الآن في طريق جديدة مثيرة . وسار في اثره  
جسمه العانى غير عابىء بالعواقب . فجعل من نفسه  
مخرجاً مسرحياً ومديراً للانتاج وممثلاً ، وجاب الريف  
ذهوباً وجيئة مع نفر بلغوا من الجنون ما بلغ ، يحيى  
التمثيلات القديمة ، ويكتب أخرى جديدة . ويفازل  
في مرح ، مخلفاً وراءه في كل مكان آثاراً من الحب  
والضحك .

وكان أحب شيء اليه اخراج تمثيلات للأطفال . ذلك  
بأنه خير من يفهمهم وهم خير من يفهمونه .

ومهما تبلغ شواغله من الكثرة والالاحاح ، فانها لاتعوقه  
عن تسليتهم . فكان بيته مليئاً بالأطفال دائماً . فقد بلغ  
عدد أولاده الآن عشرة ، دعك من رفاقهم الصغار الكثرين  
الذين يأتون لزيارتهم » وكثيراً ما كان العم بوز يقطع

الجملة من وسطها لينصرف الى مداعبة الصغار دعابة  
عنيقة « كما تقول ابنته .

ان ديكنز فى موقفه من الأطفال ليتبدى فى اشد حالاته  
مرحاً وأشدّها رقة . كذلك حدثنا أحد أصحابه انه كان  
يجوس واياه خلال الأحياء الفقيرة ذات ليلة باردة من  
ليالى الشتاء ، وكان الفجر يقترب والزمهرير القارس  
يكاد يفتح جسمى وينفذ منى الى صميم عظامى « وكنا  
نمر بنزل فقير، فما هى الا ان رأيتـه يختطف طفلاً  
صغيراً من بين ذراعى أمه السكرى المسكينة ويحمله  
الى داخل النزل بما كان عليه من قذارة ، ليمنحه  
الدفع والعناية » .

وهذا صديق آخر من أصدقائه يصوره فى صورة  
تشبه هذه جمالاً « كان يسير مع ديكنز خلال سسوق  
هرجرفورد ، وكان يسير أمامهما أحد عمال الفحم وقد  
حمل طفلاً يطل وجهه المتورد القدر من وراء كتف أبيه .  
فغمز ديكنز للطفل وغمز الطفل لديكنز يرد عليه تحيته .  
وبعد اذ استقر التفاهم بينهما على هذا النحو اشترى  
ديكنز كيساً من الكرز من بائع الفاكهة واطعمها الطفل  
جميعاً واحدة واحدة دون أن يلاحظ الأب من الملهاة  
الصغيرة شيئاً » .

فالحياة كلها - كما يعلم ديكنز والأطفال - يمكن ان  
تحال الى ملهاة لو انك نظرت اليها النظرة الصادقة .  
فان القدر أيضاً كان يطعم ديكنز الكرز ، ويمنحه السرور  
العظيم ، والمذاق الممتع .

ثم أصابه التلبك فى آخر الأمر . فقد اشترى ديكنز  
قصر (جاذهيل) وهو القصر الذى أخبره أبوه مرة أنه



قد يمتلكه يوما ما اذا هو جد وثابر . وأمتلك هذا المنزل  
والسهر عليه يتطلبان مزيدا من المثابرة والجهد ، ومزيدا  
من الأصدقاء والتسلية ، ومزيدا من التنفيس على  
زوجته والانفصال الحاسم منها آخر الأمر .

وتبع ذلك انهيار في صحته . لكن عمله متواصل  
لا ينقطع . فنققاته تتزايد ، والجمهور الضامى يتصايح  
بطلب المزيد من قصصه ورؤية شخصه . وتعاقد على  
سلسلة من الجلسات يقرأ فيها رواياته على الجمهور .  
في انجلترا وامريكا . وكان يصيب في كل مكان غدقا من  
الذهب وضجيج الاستحسان .

كتب من اكستر الى صديق له في لندن « لم أشهد  
شيئا قط كالحب الشخصى الذى يفد قوته على » وهذه  
امراة توقفه في شارع بنيويورك وهى تقول « مسترديكنز  
هلا اذنت لى فى لمس انيد التى ملأت بينى بعدد كبير جدا  
من الأصدقاء » ويبدو ان كل من قرأ قصصى متلهف على  
ان يسمعنى أقرأها من جديد .

ولا عجب . فهذا الرجل ، كما قالت سيدة من  
بوسطن ، هو ساحر لا ريب فى ذلك ، قد اجتمع فيه رهط  
كامل من البشر . فهو يكاد ان يبدل بجسمه جسما آخر  
كلما انتقل من شخص فى القصة الى شخص آخر . وان  
له من الأصوات مثلما حوت كتبه من الأشخاص . وأحيانا  
كانت عاصفة جائحة من الاستحسان تعصف بالجمع كله ،  
فما كان شىء يوقف الضحك وانبجاس الدموع ،  
واصطفاق الأكف ، والقرع بالأقدام ، والهتافات الداوية  
المحمومة « أعداها ثانية أعداها » ثم « أعداها أيضا » .

وكان ديكنز يرد المعجبين الى الهدوء باعاداته ، ويجمع

ماكسب ، وينزف قوته نرفا ، ويعود من رحلة في أمريكا  
استغرقت خمسة أشهر وقد حمل جيبه مائة ألف  
دولار - وحمل وجهه طابع الموت .

واذا كان قلبه مابرح قلب طفل ، فان جسمه غدا  
جسم شيخ طاعن في السن . كتب احد أصدقائه في  
مفكرته ( ان اقل استشارة لشعوره تدفع بالدم الى يديه  
حتى لتضربان أحيانا الى السواد . وتلبك هضمه بحيث  
لم يستطع أكل الطعام اليابس ، فكانت قائمة طعامه  
اليومي تشتمل على قدر يسير من القديد المبلل في  
القشدة ، وقدر من حساء البقر ، وكوب من نبيذ شرى ،  
ومشروب (اجنوج) مضافا اليه قليل من الروم ليضفي  
عليه طعما لايعافه . وكان أبدا مصابا بالأرق، ويستشعر  
في قدمه اليسرى خدرا خاصا ) « كان جزءا منى قد مات  
فعلا » .

لكنه لاينى عن مطالعته خلال الربيع من عام ١٨٦٩ .  
ثم يقضى راحة قصيرة في منتصف الصيف ، ويستأنف  
المطالعة خلال الخريف والشتاء من ١٨٦٩ والربيع من  
عام ١٨٧٠ .

ثم تقصر قوته عن بذل الجهد . فهو يقول في آخر  
مرة ظهر فيها على الناس « انى لاتوارى عن هذه الأضواء  
الزاهية الى الأبد . . فوداع محزون ، شاعر بالفضل  
قادر للجميل يحمل لكم الحب والاكبار » .

وما هى الا بضعة أسابيع ثم ظهر لأول مرة أمام جمهوره  
الجديد ، جمهور خالد من الأطفال المرحين ( وهل تحوى  
مملكة السماء غير هؤلاء ؟ ) .



## فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكى

( ١٨٢١ - ١٨٨١ )

- ١ -

كان آل دوستوفسكى فى اول أمرهم أسرة كاثوليكية من لتوانيا - يجرى فى عروقها دم أهل الشمال - واذ كانت قد تحدرت من أصلاب قسيس أرثوذكسى يونانى ، فقد تميزت بالكبرياء والتزمت والورع ، والفقر المدقع . لقد كانوا مشوقين الى كلمة الله والى الحنطة ، وقد رحلوا الى اوكرانيا ، وغيروا ديانتهم الى ديانة أكثر انسجاما مع دمهم الأسكندناوى ، والتمسوا الطعام والجواب الأبدى على سؤال الروح الأبدى . لقد كانوا رهطا أولى عقول ، قد يذهبون الى أى مكان عقوا الخاطر - الى الجنة أو الى اللعنة ، ولكنهم لا يذهبون أبدا فى غمرة الهمل .

ولد فيودور عام ١٨٢١ من هذه السلالة العجيبة من الكاثوليكية الأسكندناوية التى يكسوها الجلال . وكان أبوه من هيئة الأطباء بمستشفى للفقراء . وقد أوجى هذا الموقف الى الصبى بأن وجود أولى العقول ليس مرده الى عقولهم بل الى انهم اطباء للفقراء . . . وان موسكو فى الشتاء لتخللها ريح لا تكتفى بأحداث صفر موسيقى فى الأذن بل انها لتصمى القلب كأنها السيف .

وكان مستشفى دوستويفسكى زاخرا بكل ألوان قسوة الطبيعة بالإنسان وفى الصيف حيث تدفأ الريح ، كنت ترى أطفالا ذوى رجل واحدة ، ورجالا طاعنين فى السن يموتون موتا بطيئاً من أثر القذارة والمرض . يطلعون فى حديقة المستشفى المجاور لمنزل فيودور ، كأنهم علامات الاستفهام قد جن جنونها على صفحة الطبيعة الباسمة.

كانت حديقة المرضى هذه أولى ذكريات فيودور ، ولقد فطن فى سن باكراً للتناقض العجيب فى أمر الحياة ، شقاء الإنسان وسط بهاء الطبيعة . وهذا الصدام بين متناقضات الحياة هز منه أعماق الفؤاد .

وكان جدار مرتفع يفصل بيت فيودور عن الحديقة، ولكنه لا يستطيع المشى حتى يختفى الحاجز بينه وبين هذا الجمال ، وهذه الشقوة . إذ كان بالجدار باب ففتحته .

ثم كان مساء . فإذا أبوه ثائر مستشاط اللب، يقفل الباب فى وجهه بعنف ، ويخبره ألا يعود الى فتحه أبداً . ولكن فيودور كان يعلم أن الباب فى انتظار أن يفتح بيد أحد الناس ، ممن يتحدثون الضرب بل ويرحبون به وقرر أنه ما بقى أبوه على احتفاظه بالمفتاح كأنه السجنان، فسيقوم هو بضرب نفسه ثلاث مرات يومياً التماساً للسروور الذى يحظى به فى المعاناة ، مع هؤلاء العانين على الجانب الآخر من الجدار ، العانين وسط مجالى الجمال .

ان على الإنسان أن يألم لكى يتنزه فى حديقة ، وكان الدكتور دوستويفسكى شديد الحزم فى معاملة فيودور وأخيه ميخائيل . فحيثما كان باب فى الجدار سارِع باغلاقه ، وإذا لم يكن جدار سارِع ببناء جدار ، ولم يسمح للصبيين بمصاحبة أى إنسان من خارج الأسرة .



ونجم عن هذا الحزم ان صار فيودور صيبا متوحدا .

فلما التحق بمدرسة الهندسة في بترسبرج في السادسة عشرة من عمره ظن المدرسون والطلاب انه متفطرس . فلم يكن له من رفيق غير أحلامه ( انى أحلم بالعظمة والجمال . انى أحيا في دنيا الأحلام وسأكتب مسرحية عاطفية ) .

انه يعيش في عالم المعانى المجردة . بعد اذ حال أبوه بينه وبين العيش في الواقع الملموس . . فما عساه يعلم عن المسرحية العاطفية ؟ لقد كان أبوه ينهى ابنه المتورع عن ذكر النساء الا في الشعر المسرحى وفي سن السادسة عشرة كان الطلبة الروس الشياطين بمدرسة الهندسة يعرفون كل شىء عن النساء . فجعلوا يعيرون ذلك الشاعر الراهب الصغير ذا البشرة البيضاء الذى يعيش بينهم .

ولكنه لم يلبث ان تسالت اليه الصداقة عن طريق ممنوع . فلقد قابل بعض الأدباء ممن هم على شاكلته وكانوا مثله حاملين ، يقرءون بوشكين ويكتبون الشعر ، وكانوا أحيانا يلتمسون صحبة النساء . ولكن هذه الصلة لم يشعر بها أبوه . « أقم حولك سياجا واحذر ان يعديك زملاؤك » .

وكان فيودور قد كتب الى أبيه يرجوه ان يبعث اليه بقليل من المال ، يبتاع به بزة جديدة ، ليتعشى في راحة مع أصحابه . . نعم . . وليأثم قليلا . فلم يتلق فيودور على كتابه غير رد شديد غاضب . وكان أبوه قد انتقل من المستشفى الى ضيعة ريفية وشكا من ان نفقات هذه الضيعة تستنفد كل موارده . وقال ان ولديه سيكونان متسولين بعد موته ، ما لم يكفا عن طلب المال .

ولاحظ فيودور ان الخط مضطرب، فظن ذلك راجعا الى اسراف أبيه في شرب الفودكا ، وكان مصابا بآدمانها. وتلقى ذات يوم خطابا من منزل أبيه ، لا بهذا الخط المضطرب الباعث على الشفقة ، بل بخط شخص آخر، وقد جاء بالخطاب ان أباه قد سافر للإشراف على بعض أملاكه فلم يعد .. وقد وجد مخنوقا تحت وسائد عربته .. أما الحوذي فقد اختفى مع الخيل . وسرى همس بأن ما حدث انما كان انتقاما من جانب رقيق الأرض الذين لم يعودوا يصبرون على قسوة مالك الأرض دوستويفسكى. وجرت الشائعات بأن كثيرا من القرويين قد اشتركوا في المؤامرة .

لم يجر فيودور اسم أبيه على لسانه مرة أخرى . ولكن مصرع دوستويفسكى الأكبر والسبب المرجح لاغتياله قد أحدث اضطرابا عنيفا في زوجه ، وكأن لعنة قابيل قد صبت عليه ، فأرسل بصره في الظلام .

## - ٢ -

وكان الليل زاخرا بالرؤى التي اثمرت به ، وازعجته، وأشارت الى مفزى عظيم . فسطر هذه الرؤى على الورق . قصص نفسية عن المغامرات ، وهي مسرحيات لم تمثل خارج شخوصه بل في داخلها . وهذه صورة مجردة قد اتخذت صورة وحش عقده به ناظره . انه الشعب الروسي . لسوف يفهمه ويعمل له ولايألو في خدمته جهدا . لسوف يحمل النار والماء لعبقريته .. ويتعهد حتى يبرز ملامحه من سمت الرأس الى اخص القدم . انه لم ير وهو بين المثقفين في بيترسبرج غير الرأس . والآن فلير القدم .



فقد لاحظ ان هذه الملايين التعمسة التى منها تتكون القدم انما تعبر عن نفسها فى حرية مطلقة فى الحانه حول كوب من الفودكا . فذهب على حياته ودقة ذوقه الى حانات بيترسبرج ليستمع الى أبناء ضرة أمنا الأرض . ولم يكن بالرجل الذى يتشجع الغرباء على التحدث اليه . فقد كان وجهه مكتئبا ، وكانت عيناه زائفتين . لذلك كان يدعو الناس ، لا الى حديث حول المائدة ، بل الى ملاعبته ( البليارد ) حيث الوجه متجه الى أسفل والأذان مرهقة الى أعلى .

فما اضعفه من لاعب وما أقواه من منصت . لقد خسر المال وكسب الحكمة وذات يوم وقع مخطوط له فى يد ناقد روسى حصيف ، فأرسل الى دوستوفسكى وقال له ( أيها الشاب : أتدرى ماذا كتبت لتوك ؟ كلا انك لاتدرى فانك لايسعك الفهم بعد ) .

لقد جعل دوستوفسكى عنوان مخطوطه ( الشعب الفقير ) انها قصة الناس الذين لم يخلقوا غير خلق نصفى — قطع بأئسة من الصلصال شوهتها أصابع الملائكة الخرقاء ، جسوم كسيحة ، وأرواح كسيحة ، مفارقات انسانية ، معتوهون أولو أعين جميلة ، عمالقة أولو أطراف ملتوية .

ونظر دوستوفسكى الى حياة أولئك التعمساء فلم يجد فيها عقلا ولا تناغما . ثم رجع الى المثقفين من جديد . فلعلهم على الأقل يعينونه على تبين نظام للخلق ، ومعنى للحياة ، لعل هؤلاء المثقفين يغيرون وجهه المجتمع ، ويخلعون القيصر فى روسيا وقيمون جمهورية من الأحرار . وانما الانسان هو من ينقل مصيره . وان على عقل الانسان ان يعمل لكى يشر قلب الانسان من الشقوة

الى النشوة .

ويشارك دوستوفسكى فى مشاورات الندوات التى كان يجريها هؤلاء المثقفون الأحرار الذين سوف يغيرون جوهر العالم . فيضم صوته الى صوتهم ضد ظلم رجال الحكومة ويقبض عليه فى أحد الاجتماعات . وبعد محاكمة سورية سيق الى حصن (بيتربول) فى انتظار نهايته مع غيره من المجرمين السياسيين ، لقد أسروا بدنه ، ولكن أنى لهم بأسر روحه ؟ أنى لهم أن يحبسوا اللانهاية بين جدران الزنزانة الأربعة ؟

وهم الآن يضعونه فى عربة ، ويسوقونه الى أرض سيمينوف للتدريب قرابة عيد الميلاد . الهواء حاد وهذه عربات أخرى تصل الى المكان محملة بسجناء سياسيين آخرين . وهذه فصائل من الجند راقفة فى انتباه على أهبة تنفيذ حكم المحكمة العسكرية .. بالموت .

وهذا قسيس يحمل صليبا فى يديه ، يقود السجناء الى منصة جللت بالسواد . وهؤلاء السجناء يؤتى بهم شرذمة شرذمة أمام فرق إطلاق النار . وهذا فيودور فى الشرذمة الثالثة يقدر أن قد بقى له من العمر خمس دقائق . يَعْجبا ليقظة عقله فى مثل تلك اللحظة .

وما يكاد الجند يرفعون بنادقهم حتى يهرع فارس الى المنصة ، يحمل رسالة من القيصر بالعفو عن المسجونين . لقد خفف حكم الإعدام الى النفى بسيبريا . وكأن هذه دعاية عابسة للقسيس الصغير . وإن أحد المسجونين لا يسمع بالعفو حتى يشرد لبه ويصاب بمس . وآخر يصيح فى مرارة ( كان القتل أهون ) ذلك أنهم كانوا يعلمون أن الموت فى الحياة أبلغ إيلاما من الموت بمعناه المعروف .



وسيق دوستويفسكى ليلة عيد الميلاد من حصن (بيتربول) الى القطار الذاهب الى سيبيريا . وفي المحطة الأولى دفعت امرأة بنسخة من الكتاب المقدس الى يديه وكان هذا هو الهداية الوحيدة لمسافر صوب هذه الأرض الخراب . ووجد بين أوراق الكتاب المقدس ورقة من ذات الروبلات الخمسة والعشرين - تكفى لشراء تبغ وثوب كتانى وصابون وخبز أبيض . ولكنها لا تكفيه ان يبتاع السلام العقلى اذ لم يكن يسهل على شاب حضرى أحب نعومة العيش ، ان يقضى وقته فى سترة السجن ، وذراعه وساقاه مصفدة بالأغلال . وإن يديه اللتين لم يسبق لهما العمل بأى شىء أثقل من القلم ، قد قضى عليهما الآن بالأشغال الشاقة .

ان هذا الشاب المسرف فى استحيائه ، قد ألقى به الآن بين أبشع اللصوص والقتلة فى روسيا . وصار رفاقه دائما هم المفسدون الذين لا صلاح لهم وقد اقتحموا عليه أفكاره . وكادوا يقترفون جرما أبشع بكثير من كل ما اقترفوه من قبل . ذلك هو جرم ذبح العقل بلا سكين .

ولكن عقل دوستويفسكى رفض ان يذبح فان مشكلة مصير الانسانية قد عادت الى استثارته حين بلغت حيرته المدى . ووجد ان معسكر الاعتقال فى سيبيريا ان هو الا قاعة أخرى من قاعات البليارد فى بيترسبرج .

ثم لاح له اثناء تأمله نور جديد . فقد أدرك ان اصلاح من لا صلاح لهم لا يأتى عن طريق الانسان بل عن طريق قوة خارج الانسان . فعاد نهما الى الكتاب المقدس الذى

كان قد وجد بين صحائفه الورقة ذات الروبلات الخمسة والعشرين ، التى وفّت بشراء الخبز الأبيض ، وقد كشف فى رسالته عن نوع من الخبز خير وأبقى .. خبز الأرواح الأبيض .. انه الله منقذ الانسان مذنباً كان أم قديساً . لكن اذا كان الله ينقذ المذنب فأى خطر فى اقتراف الذنب ؟ الواقع ان الخطيئة اغراء ايجابى ، اقتراض من رحمة الله ، اختبار لكرمه اللانهائى ، كما ان طلب القرض من صديق فيه امتحان لكرم الصديق . وهؤلاء المثقفون فى بيترسبرج ، الباحثون عن عالم يفوق عالمنا خلقيا ، ألم يعلموا ان صلب المسيح لا يكون له معنى ما لم يصلب القاتل بجوارحه : « فالله يخلق الخاطيء والخطيء يخلق الله ، وان عالما من الكمال الذكى كالذى يحلم به المثقفون فى بيترسبرج ، يوشك ان يقضى بالعدم على الفرض الخلاق الله .. »

وكلما زاد دوستويفسكى ايقالا فى التفكير فى مشكلة الشر، زاد ادراكه ان جريمة الانسان ليس معناها شر الانسان ، وان عقاب المحاكم ليس معناه ارادة الله . « ان من يحقق بهم عقاب البشر ينجيهم الله » .

وهذا دوستويفسكى الذى اشترك فى نشاط ثورى وهو يأمل مخلصا انقاذ الناس تصدر محكمة مخصصة عليه حكما بالعقاب جنبا الى جنب مع القتلة الذين ازهقوا ارواح الناس . وهنا أومض فى خاطره شعور بأن عليه البحث وراء ظواهر الأشياء ، لكى بهتدى الى المنطق الصحيح للأشياء .

- ٤ -

وبعد ان قضى اربعة أعوام فى سيبيريا ، اطلق سراحه



من الأشغال الشاقة ، ولكن القانون الروسى كان ينص على ان العقاب لم ينته بعد . فطلب اليه ان يخدم بوصفه جنديا فى سيبيريا ، وان يشق طريقه صعودا الى رتبة الضابط ، قبل أن ترد اليه حريته . فانضم الى فصيلة من الجند فى قرية سمبىلا تنسك الصغيرة . وأحب ماريا دمترىفنا ، زوجة ضابط الفصيلة ، وكانت شقراء شيئا ، متوسطة الطول نحيلة جدا سريعة التأثير متعالية ، وكان زوجها فى نزع الموت . ولكن فيودور كانت قد اجتاحتها فكرة ( لن أتزوج قط . يجب ان أحيا عزبا ) ذلك بأن مرضا خطيرا كان يعاوده فى السجن فى فترات منتظمة ، هو (الصرع) . وقد أخبره الأطباء ان هذا المرض يستفحل مع تقدم العمر . وهو الآن قد اجتاز معظم الحلقة الرابعة . وهذه أول مرة يقع فى غرام عفيف ، انه حب قد تأجل عن مواعده كثيرا ، فأعاد الرجل فجأة الى جموح الصبية المراهقين .

وسرعان ما مات زوج ماريا ، فعمد فيودور، الرجل الذى برىء من مرضه كما كان يدعو نفسه الى اهمال نصيحة طبيبه ، وبنى بالأرملة ، وسرت شائعات السوء بأنها قضت الليلة التى تسبق ليلة الزفاف فى أحضان عاشق يصفر فيودور فى السن .

وحين سمح لفيودور أخيرا بالعودة الى روسيا ، لفظ الناس بأن عاشق زوجته تبعهما فى مركبة تسير فى اثر مركبتهما الى الوطن . ولكن الشتاء الرطب سرعان ما أصابها بالحمى القرمزية ، وصار من الواضح انها أيضا موشكة على اللحاق بزوجها فى عالم الموتى . وحالت حالها مع الوقت بحيث صار ينكرها من رآها . فلا حاجة الآن الى الخوف من خيانتها .

وكان فيودور لم يزل يجاهد في حل مشكلة الشر،  
فرجعت به الذكرى الى بعيد الماضي ، الى أيام طفولته،  
والى حديقة المرضى، حيث المرضى على جانب من الجدار،  
والأصحاء على الجانب الآخر.. ان على المرضى أن  
يموتوا ، وعلى الأحياء أن يحيوا . فان عواطفه التى طال  
بها السكت متعطشة الى الانطلاق . ووجد ربا لظمئه  
فى ابوليناريا بانكراتيفنا . وكانت طالبة شابة تسير فى  
المظاهرات الاشتراكية تحمل علما أحمر وتنشد المارسييز.  
وكانت قد استمعت اليه وهو يحاضر . فكتبت اليه  
انها تحبه .

وكانت باردة وكانت شبيقة ، وكانت مزعجة ، حتى  
فى الحب . حتى ليكاد مركز دى سساد ان يكون من  
تلاميذها فى ذلك . انها قمينة بأن ترتكب الجرائم دون  
اكتراث أو احتفال . وهى فى برود جليد الشتاء ، تنظر  
الى كل الناس دون ان يمس نفسها منهم شئ ، كأنها  
رئيسة دير فى القرون الوسطى . ومع ذلك فلم تشبهها  
امراة أخرى فى الشهوة والشبق .

أما محبتها فكان ينطوى على رجلين ، أحدهما يعمل  
جاهدا للكشف عن مشكلة الجريمة والعقاب .. يرسم  
خطوطها وشخصها ، ويكتب المذكرات ويصف النوافذ  
القوطية.. انه يحاول ان يخضع للغة الكلام قصة الطالب  
(راسكلنيكوف) ألم يهب نفسه للبحث عن دخيلة العالم،  
وان يحيا ويموت فى دير فنه ؟

هذه صورة الرجل فى وعيه .

أما الرجل الآخر ، فطائر على جناح حلمه المحموم ،  
جائل مع 'ابوليناريا' اقطار أوروبا جميعا . وانها لتصدده



وتعذبه وتحمله على الاستمتاع بها وكراحتها على التعاقب .  
وانه ليركع أمامها وقد غشت عينيه الدموع ضارعا اليها  
الليلة بعد الليلة الا تطرده من غرفتها . ثم تناهت اليه  
الأنباء بأن زوجته قد شارفت الموت . فأسرع اليها ،  
وسهر على العناية بها سهرًا متصلاً ، وشهدا حين  
أسلمت الروح .

- ٥ -

و ذات صباح أقبلت شابة على دستوفسكى تلبية  
لحاجته الى سكرتيرة يملأ عليها كتابه الأخير ، فنظرت  
في اجلال الى وجه الرجل الذى يكتب (الجريمة والعقاب)  
الى جانب فراش زوجته المحتضرة . فلما تم الكتاب  
احس دستوفسكى بقلق عجيب ، ولكن سكرتيرته (آنا  
جريجوريفنا) قالت له (فيودور ميخائيلوفتش ان الجبلين  
لا يمكن جمع شملهما ، ولكن الانسانين يمكن جمع شملهما)  
وتزوجته .

والجريمة والعقاب : هى قصة (راسكلنيكوف) التى  
يقراها العالم أجمع . قصة الشاب اللامع الذى يستيقظ  
فى حلمه ، فيقدم نظريات ويكشف أغوار الخير والشر  
بعقل نافذ لا يعوقه عائق .

واخيرا يتمخض عن ذوبان ارادته فى صورته العقلية  
المجردة للانسان الأسمى ويقع جسمه فى أسر عقله . .  
فكل ما كتب عنه من الأفكار ، وكل ما خطه من مقالات  
ونظريات قد استحال ارادة آلية تجرفه أمامها . فتدب  
الحياة فى المعنى المجرد حتى ليبتلع ما كان حيا ملموسا ،  
ويحدث تبادل بين الشخصيتين ، وما دامت آراؤه  
ونظرياته قد اشتملت على وجود الجريمة ، أبشع جريمة

يسع العقل البشرى تصورها ، فانه مضطرب الى ان  
يقترف جريمة .. يجرفه الى ذلك قوة عقل عقد العزم  
على اختبار أفكاره ..

وهناك عجوز من عميلات الرهن ، كان قد رهن لديها  
بعض ما يملك فقرر قتلها وساءل نفسه ولم ذلك؟ واجاب  
(انه من أجل مالها الذى لاغناء فيه للبخيلة ، ولكنه أداء  
لما تحتاجه حياة الطالب مثلى من نفقة ) .

ووجدت آنا فى شهر العسل دستوفسكى مستلقيا  
فى احدى نوباته ، وقد تدلى رأسه من أحد جوانب  
مخدعه ، ولو مضت ثانية بعد ذلك لوقع . وسبق تقلصات  
شعور صرعى ، وتحول وجهه كله الى نعمة نشوى ،  
فمسحت العرق عن جبينه والزبد عن شفتيه (واستفاق  
تدريجا فقبل يدي وعانقنى ) .

ومضى دستوفسكى فى كتابة قصته .. وفى اليوم  
المضروب للجريمة ينام راسكلنيكوف معظم الوقت حتى  
يفوت الموعد المحدد . ثم يصحو ويشخص الى دارالعجوز  
فيصطنع عذرا لتعطيها ثم يمسك بفأس . وكان حتى  
اللحظة الأخيرة يشعر شـعورا قويا ان الأمر كله غير  
صحيح وانه لن تقترف جريمة .. حلم عجيب .. ايهما  
العالم اليقظ ، وايهما العالم النائم ؟ وعلى نحو الى  
يشج رأسها بحد الفأس . وكأن الدم الذى ينزف  
شراب فى سوق .

فتصعد أخت القتييل الدرج ، وكان يقدر غيابها  
فقتلها هي الأخرى ، وأخذ بعض مجوهرات المرأة  
المجوزة ، وحافضة تقودها ، لأن صوتا فى باطنه يغمغم له  
غمغمة متصلة ( أنك قتلتها من أجل هذا المال . من  
أجل هذا المال .. لأنك فقير محتاج وهى غنية عجوز لاجدوى



لها .. وهذا المال سيدفع بك قدما في حياتك وفي  
دراساتك ) .

ثم يلقي بحافظة النقود جانبا دون فتحها ، ذلك بأن  
فكرة جديدة تسرى الآن في جهاز عقله ( أيها الانسان  
الضعيف لا تنتحل الأعذار لتوجد مبررا ماديا . انك  
قتلت هذه المرأة لمجرد ان القتل نفسه قد استهواك .  
وليس من دافع آخر . انك قتلت لأنك أردت اقتراف  
جريمة ) .

وكان دستويفسكى يذهب الى المقصف دائما ، پراهن  
بالمال على الأحمر والأسود . فان الجموح واللون والخطر  
كانت تجرّفه ولا عاصم ، كأنها الحياة نفسها . « وعاد  
ذات يوم الى منزله في يأس وقال انه قد خسر كل شيء ،  
وشرع يرجوئى السماح له برهن بعض الأشياء ، فخلعت  
له قرطى وحلية صدرى .. فركع امامى وقال : ان عليه  
ان يلعب دون انقطاع .. وعندئذ أدركت انه ليس  
بالمقامر العادى . فهو لايقامر ليكسب ، بل لأن به حاجة  
الى ان يخسر » .

ولكن جريمة راسكلنيكوف لا تختم القصة انما هي  
البداية . ان الانسان بحاجة الى اقتراف الجريمة ،  
لا من أجل الجريمة ، بل من أجل ما يليها من عقاب .

هذه هي القصة . فهل تريد المضى قدما في التيه  
المعقد وراء الخير والشر؟ ان القتل قد اعتبر جنابة  
غامضة ، واعتبر القاتل مجهولا ، ولا مرأى ان أحدا في  
بيترسبرج لايتهم الطالب راسكلنيكوف بكل نظرياته  
الفريبة ..

وفي غير وعى وعلى نحوالى ، في هذه الحدود المجهولة

بين عالم الواقع وعالم غير الواقع . يعود راسكلنيكوف الى زيارة مكان الجريمة ، ويذهب الى مقر الشرطة للسمر ، فتند عنه تلميحات مريبة ويلفت الى نفسه الأنظار ، ويبذل جهد المستميت في اجتذاب الأنظار الى جريمته . حقا لقد اقترف جريمته من أجل ما تشتمل عليه من ذنب ( ألم أولد محملا بخطيئة كل من مات وكل من سيولد ؟ ما أغبى الناس وما أقل بصر القوانين التي سنّها الانسان ! فهي لاتعترف قط بالجرائم غير الملموسة التي تحوم في أثير الروح . فليس قيام الناس بالاعتراف للقسيس لتخليص أرواحهم قاصرا على حالة المشهد المادى للقتل والدم ) .

لذلك كان على المرء ان يقتل لكي يطالب بالعقوبة التي تورطت فيها الروح ساعة الميلاد ، فليرحم الله الرجل الذي يشعر بآثمه وجرمه ولم تلتطخ يداه بأي جريمة قتل . انه قد يصاب بمس . ويخر روسكلنيكوف على ركبتيه ويخبر الناس انه قد قتل امرأتين بفأس وهو في حالة هادئة ومع سبق الاصرار ( أرجوكم أيها القوم الطيبون ألا تتصوروا جريمة أبشع من هذه في تاريخ القلب ) ويصدر عليه الحكم ويذهب الى سيبيريا وعلى شفّتيه أغنية . ما أعجبه من انحراف انه الآن وقد تلتطخت يداه بجريمتي قتل يشعر لأول مرة في حياته انه برىء كل البراءة ، كأنه ملاك يستشهد في نشوة النعيم .

فيهمس دستوفسكى ( قل لى هبل هناك اله ؟ ) فيجيب صوت كأنه يخترق الحجب البعيدة ، ويقوده كدانتى عبر مهاوى أولى اللعنة ( انما أنقل الانسان وجود



الشیطان . فعن طریق الشیطان وحده قد مسب  
الانسان الضمیر ؛ .

- ٦ -

وكان فیودور دستویفسکی-یشرب الشای مع الشبان  
والشابات اللائی حضرن لمحدثه فی أمرالمصیر الاجتماعی  
للانسان . فلما أعربوا عن حلمهم فی عزل القیصر واقامة  
جمهورية فی روسيا علی غرار الجمهوریتین الفرنسیة  
والأمریکیة عاد عقله القهقری الی ایامكان منفیاسیاسیا.  
فی زمرة القتلة الذین استخدموا الفأس والبندقية .  
وهز رأسه فی حزن قائلا ( ریثا ایها الأطفال . ان مانحتاج  
الیه لاعادة بناء العالم لیس هو العنف - بل العمل  
العظیم ، الثورة العظمی المنبثقة من الضمیر ) فأجابوه  
وأعینهم تقدح بالشرر ( ولكن کیف لك ان تلهم الناس  
جمیعا هذا العمل العظیم ، تلك الثورة النابعة من الضمیر  
كما تدعوها ؟ ) .

فرد علیهم دستویفسکی بقوله ( وما حاجتكم الی دعوة  
الناس ؟ ألا تدركون مايمكن ان تبلغه قوة رجل صحیح  
واحد ؟ انه لا یكاد یظهر رجل صحیح حتی یمضی الجمیع  
فی اثره ) .

ثم تهدأ عیناه وكأنهما النجم المتألیء ، وتنتقل حياة  
صوته الی حياة قلمه ، فیجرى قلمه بتصویر رجل نبیل  
كامل ، شخصیة من الجمال الخالص - الأمير (مشكن)  
وهو مصروع معتوه أطلق من مصحة العقول . وما أبسط  
عقله وما أقوى ثقته بالطبیعة البشرية . انه فی عالم  
المحتالین فیضربونه ویسرقونه ویكادون یقتلونه فلا یمد

- ٦١ -

أصبعا ليردهم عنه ، انه يرفض ان يكون عليما بدناءة  
الناس، وهذا ما يحفظهم عليه - انهم يستطيعون اختلاس  
أى شىء منه عدا ايمانه بطيبتهم ، فهم اذا اعتدوا عليه  
ربت عليهم فى حنان ، كأنما هم يعانون الأذى وليس هو .  
وسرعان ما أخذ أفرغهم رأسا يدرك انه انما يعيش فى  
مستوى من الشعور أسمى من مستواهم .

ولكنه ارتفاع تدور منه الرعوس ولا بد لكل الناس  
من السقوط آخر الأمر، فيقع صاحبنا فى حب امرأة  
ساقطة ، فيقتلها عاشق آخر من سكان الأرض فى ثورة  
مخافة ان يحظى بها غيره . فاذا هرع الناس الى الغرفة  
وجدوا ان القاتل قد غطى الجثة بالقماش المشمع ،  
واحاطها بقارورات العقاقير لمنع العدوى ، ووجدوا  
القاتل فاقد الوعي تماما حائقا مغيظا ، وكان الأمير يجلس  
الى جواره على الأرض دون حراك ، وكلما انطلق المريض  
يصيح ويرغى ويزبد ، سارع بامرار يده المرتعشة على  
شعر رفيقه وخديه ، كأنما يريد أن يرده الى الهدوء  
والطمأنينة . لكن القاتل وا أسفاه لم يعرف احدا ممن  
احاطوا به .

ولم يزل دستوفسكى يتعمق غورا بعد غور حتى  
وصل الى أبعد أغوار قلبه . ويصير منظره عجيبا اثناء  
الأعوام الأخيرة من حياته . ويذهب الى حديقته ، وقد  
انحنى رأسه من ثقل أفكاره .

ما هذا المخلوق الذى ركب من طل ذلهم ، ذلك الملاك  
الشیطان ، الحكيم فى حماقته الأحمق فى حكمته ؟ ان  
دستوفسكى يخلق أشخاصه معتوهين ومجرمين وحكماء  
وقديسين ، ويطلب الى كل منهم بلا استثناء جوابا عن  
أحجية الحياة . وانه ليضرب فى الطرقات وينصت الى



من يمر بهم من الناس ، لعله يجد الجواب في كلمة أو  
إيماءة أو بسمة أو إيماضة وجه بنشوة الأمل .

وكثيرا ما كانت أفكاره تسمو به الى مستوى يعلو  
ادراك أخوانه من البشر . انه ليحلق بأجنحته عبر  
الفضاء ويرى شمساً جديدة (كان البحر الزمردى الباسم  
يداعب الشيطان في حنان ، مقبلا في حب ، حب ظاهر  
تراه العين ويكاد ينبض بالشعور .. كانت الأشجار  
الباسقة الرائعة تقف في روعة الأزهار الكاملة ، وأوراقها  
التي لا تحصى تحييني في صوت حلو مهدد ، كأنما هي  
تتحدث بالحب . وكان العشب قد اشتعل بألوان براقية  
حلوة العبير . وأسراب الطير تدور في الهواء ، ثم تستقر  
في اطمئنان على كتفي ويدي . وتقرعني جاذبي قرعا  
خفيفا بأجنحتها الصغيرة المرتعشة .

كانت هذه هي الأرض قبل أن يدنسها الظلم ، وحين  
كان يقطنها قوم لم يعرفوا الخطيئة بعد.. لقد أروني  
أشجارهم . ولكن لم يسمعن فهم أغوار حبيهم وهم  
ينظرون اليها . واني لمقتنع بأن هؤلاء الناس كانوا على  
نحو ما متصلين بالنجوم في علياء السماء . لم يكن لديهم  
دين . بيد أنهم كانوا يعلمون علم اليقين انه حين يسمو  
سرورهم الأرضي بحيث يبلغ حدود طبيعتهم الأرضية  
فسيفتح .. منفسح اكبر للاتصال بالكون كله . كان  
كلهم مستهما بصاحبه الى أقصى حد ، وعلى أوسع  
مدى .. ونظروا الى بأعينهم التي تضيء بالحب ..  
فأفسدتهم جميعا ! فكيف أمكن أن يتم ذلك ؟ لست  
أدرى .. وكل ما أدرى اني كنت سبب النكبة . فتعلموا  
الكذب وأحبوه وأدركوا جمال الأكاذيب .

وما أسرع ما أريقت أول قطرة من الدم وشرعوا

يتحدثون بلفات مختلفة وشرعوا يعرفون الحزن ويحبونه .  
ويتوقون الى العذاب ، ويقولون ان الحقيقة لا تنبت الا  
من الألم . فاذا أغضبوا تكلموا عن الأخوة والانسانية . .  
واذا اقترفوا الجرائم اخترعوا العدالة، ووضعوا لأنفسهم  
قوانين كاملة لدعمها ، ودعما للقوانين أقاموا المقصلة .  
انهم لا يكادون يذكرون ما خسروا . . وأخذ يظهر رجال  
يفكرون في طريق يهيء لهم الاتحاد ، على نحو لا يكف  
فيه أحدهم عن ايثار نفسه على الناس جميعا ، ولكن  
يمكن بفضله ألا يقف في طريق غيره . . وقامت من أجل  
هذه الفكرة حروب كاملة . . فبكيت من أجلهم رثاء لهم،  
ومددت اليهم يدي متهما لاعنا ومزدريا نفسي . وفي يأسى  
ذكرت لهم ان عملى قد انتهى . . وضرعت اليهم ان  
يصلبوني ، وعلمتهم كيف يصنعون الصليب . . ولكنهم  
اكتفوا بأن سخروا منى ، وانتهى الأمر بأن ظنوا بى  
الجنون . . ثم أفقت من نومى فرفعت يدي ودعوت  
الحق الأبدى ) .

ثم جاء الجواب أخيرا عن الطريق الملتوى لانحراف  
البشر وحقاقتهم وألمهم ( لسوف يأتى . . الرجل الاله  
الذى سخر منه الناس وعدوه فى المعتوهين . وسوف  
يتعلمون ان يتبعوه حين يعلمهم حقيقة معنى الخير  
والشر - ان من ينزل الألم ومن يعاينه ليسا شخصين  
مختلفين ، بل هما ذات الشخص ، وذات الروح . وان  
كل انسان مسئول عن عمل الجنس البشرى بأسره ، وان  
الجنس البشرى بأسره مسئول عن عمل كل انسان ،  
وسوف يأتى ذلك المنقذ المعتوه . . الى هذه الأرض  
حيث الانسان يبدو حقيقة ، وما هو الا طيف ، ويبدو  
الاله طيفا وهو الحقيقة . سوف يأتى آخر الأمر ويلقنا  
الحقيقة الحيوية الوحيدة ، ان كل الناس من أسمى

القديسين الى ادنى القتلة يتلمسون نفس المصدر بطرق  
شتى ، مصدر النور ، نور الوحدة العالمية والحب  
العالمى ) .

ويجلس دستويفسكى ويمسك برأسه . وسرعان  
ما يشعر بعرق عجيب على يديه . لقد تخضبت يداه  
بدم من رثتيه .

(وليست الحياة أهلا للزراية ولا الموت أهلا للخوف) .

وتضع زوجته الباكية واطفاله الباكون شموعا حول  
جثمانه ، ويبعث حكماء روسيا جميعا برسائل العزاء ،  
وينشد التلاميذ ، خاصة من تعلموا على الرهبان ،  
صلواتهم طوال الليل .

( ابنائى : لنقصر عن التشوف الى حياة أبدية فى  
المستقبل ، ابنائى : اذا نحن لم نبلغ الأبدية فى هذه  
الحياة فلن نبلغها أبدا . فالأبدية هنا .. الآن . فثمة  
لحظات لا بد أن ندركها ، لحظات من الوجود الأسمى ،  
يقف عندها الوقت لا يريم ، وتستغرق حياتك كل  
حيوات الجنس البشرى كله . تلك لحظات أبدية .. ) .

الناشيد لا تنتهى . ثم يدفنونه ( ان هذه اللحظات  
الكاملة الخارجة عن مجرى الزمان ، هى التى يتحرك  
نحوها الجنس البشرى بأجمعه ) فليس معنى الحياة  
انتقال الانسان من جيل الى جيل ، بل تحول الانسان  
من وحش الى ملاك . من الخاطيء الى القديس . والحياة  
صعود متصل من المستويات الدنيا للادراك الى المستويات  
العليا .. حتى تغدو أسمى لحظات القديس ، الايمان  
الخالد للخطيء . « والخلق كله ماض من الظلام الى  
النور » .



## ليوتولستوى

( ١٨٢٨ - ١٩١٠ )

- ١ -

كان تولستوى من هؤلاء القلائل ، الذين لم يرفعهم عن طبقات الشعب طموح فذ ، بل لقد نزل بهم الى هذه الطبقات قلب فذ ، فكان شأنه شأن بوذا ، ذلك العظيم الآخر الذى تواضع فارتفع .

فتولستوى قد تحدر من سلالة طويلة من الأمراء ، وكان أحد أجداده صديقا حميما لبطرس الأكبر . ولد فى يسنايا بولنايا عام ١٨٢٨ وفقد أمه وعمره سنتان ، وأباه وعمره تسع سنوات فكفلته وأخويه وأخته سيدة تمت اليهم بسبب من القرابة هى « العمة » تاتيانا ، وكانت امرأة تمتاز بميزتين بارزتين هما الصفاء والود . وتشوبها رذيلة واحدة كبرى ، هى صحبة أهل البلاهة من الحجاج فهى تعدهم من المتصوفة والقديسين .

وكان تولستوى يستمع الى قصص هؤلاء الحجاج . فكلف منذ حداثة بما وراء الطبيعة . وهو كلف لم يستطع قط ان يخلص منه تماما . فظل حتى آخر أيامه نهبا الأحلام اليقظة ، والشطحات الصوفية ، التى طالما غامت على عقل من أسمى عقول القرن التاسع عشر .

وكان فى المدرسة من أشد التلاميذ تخلفا . وكان من عادة مدرسيه ان يصفوا ليوتولستوى وأخويه قائلين :

أما سر جى فمقبل كفاء . وأما دي متركى فمقبل لكنه  
غير كفاء . وأما ليوفلا هو بالمقبل ولا بالكفاء .

لكنه ينظر الى الحياة نظرة الجد الصارم . فقد علم  
وهو صبى لم يجاوز الخامسة أن الحياة ليست متعة  
وتسلية ، بل هى كد بالغ العناء . وفى عامه السادس  
عشر كفر بالكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) وأعقب ذلك  
عصر من التجول الفلسفى فى (صحراء المراهقة) على حد  
تعبيره . فانتقل من الدين الى اللا ادرية ومن اللا ادرية  
الى الكفران بكل شىء . وأخيرا شارف البأس حين بلغ  
عامه التاسع عشر .

كان الباعث الأكبر على تعاسسته أنه ذو جسم غير  
شائق . فهو شديد النهم الى اعجاب الناس به . وأنه  
ليكتب فى يومياته « أريد ليعرفنى الجميع ويعبئنى  
الجميع » لكنه يؤمن الا سعادة فى العالم لمن حرم الفتنة  
كما حرمها هو . فقد كان وجهه دميما كوجه القرد .  
فعيناه صغيرتان غائرتان ، وجبينه منخفض ، وشفتاه  
غليظتان ، وأنفه ضخيم بصلى الشكل ، وأذناه غاية فى  
الضخامة ، كان له عقل بارع الجمال فى جسم بالغ  
الدمامة ، وبلغ من احساسه بأنه منفر أن قرر الانتحار .

لكن عدل عن رايه لحسن الحظ وأسرف على نفسه  
فى الملذات يلتمس بها النسيان الوقتى لتعاسته ، بدل  
التماس النسيان الدائم فى الموت .

ثم استكشف روسو ذات يوم .

وكان هذا الكشف هو الدعاة الروحية التى يحتاجها  
وقتئذ على التحديد . فأزال برمه بدمايته . وفتح عينيه  
لجمال الطبيعة . لقد كفر بدين الكنيسة . فهو الآن

يعتني دين روسو ويعبده كأنه اله ، ويتخذ حول عنقه قلادة تمثالا صغيرا لروسو وكأنها من الصور المقدسة.

وجاءت قصته الأولى (مالك روسي) من الهام فلسفة روسو. وتعالج هذه القصة المشكلة التي سوف تشغل تولستوى طول حياته . مشكلة الصراع الخالد بين المثل الأعلى الذي يحيا له النبي ، وازورار الجمهور وعدم اكترائه . فبطل القصة ويدعى الأمير نيكلودوف قد هجر الجامعة ليساعد فلاحيه . ولكن فلاحيه يؤثرون البقاء في حماة الهوان ، شأنهم في ذلك كشأن أكثر من اصابوا بالاهمال وقلة الاحتفال . فهم يستطيعون فهم السيد الظالم الذي يلهبهم بالسياط . لكنهم لا يكادون يعرفون ذلك السيد الرفيق بهم . ماذا يكون ؟ انهم يجفلون منه ويهزءون به ، وينظرون الى عونه المبذول نظرة المرتاب . وهو عندهم اما جاسوس ، اومحتال ، او ابله ، أو أى شيء ، الا أن يكون رجلا لايبقى غير صداقتهم .. فينهزم نيكلودوف ويجلس الى (البيانة) يعبث بمفاتيحها وليس هو بالموسيقى الموهوب . ولكن خياله يصوغ الاغنية التي عجزت عن عزفها أصابعه غير الرشيقة ، فيسمع زمرة ترنم ، وفرقة تعزف ، ويمتزج الماضي والمستقبل فيتحقق حلمه ظافرا .

انه ليرى الفلاحين الروس ، لا في كل دمايتهم ، بل وفي كل ظرفهم كذلك . فيففر لهم جهلهم وكسلهم وعنادهم ونفاقهم وارتياهم ، ذلك بأنه لا يقتصر الآن على النظر الى ظواهرهم . بل انه ينظر أيضا الى بواطنهم . يرى آلامهم وصبرهم وبشاشتهم ورضاهم الهادئ بالحياة واستسلامهم الشجاع اذا واجههم الموت . ويفهم قائلا (جميل) .. فهم ان يرفضوا ما عرض عليهم .



فهو الآن يفهمهم ويحس احساسهم لانهم جميعا اخوة .  
هو والفلاحون من لحم واحد ودم واحد .. كلهم رهط  
من الفلاحين لا حول لهم ولا قوة ، يعيشون ويكدون  
ويموتون تحت سيطر مالك الأرض الذى لا يرحم ،  
أعنى به القدر .

## - ٢ -

وما أقبل عام ١٨٥١ حتى كان توأستوى قد فقد  
ماله فى المقامرة ، وفر الى القوقاز لينجو من دائنيه .  
وانضم الى جيش كان أخوه من ضباطه .

لقد كان تولستوى فى عامه التاسع عشر يتمنى لو  
يموت . أما الآن وقد بلغ عامه الثالث والعشرين فهو  
وطيد الايمان بالحياة . فقد تخلى عن شكوكه الفلسفية ،  
واحساسه الجارف بالخطيئة وعاد الى شغفه بالتصوف  
والنسوة الجميلات . فهو كفاوست فى شبابه ، يقبل  
الحياة ويجد فيها لعبة يحلو له العبث بها . فالتجارب  
جميعا طيبة ما أضافت الى حظنا من السرور . ويقول  
فى القوازيق « ليس من شئ يقال له خطأ . ولئن  
تستمتع بفتاة جميلة لما فارقت اثما وانما قدمت آية  
على حسن الصحة » .

لقد غمس نفسه فى جمال الجبال وحارب وقامر  
وأبدع الروائع الواقعية الشعرية : حكايات  
الطفولة وأقاصيص الحرب ، وقصص القوازيق ،  
والمقالات والخطابات التى فاض بها قلمه فى تتابع سريع  
كأنه تدفق السيل .

وكان من اثر استغراقه فى عمله الأدبى انه لم يكد

يلتفت الى واجباته الحريسية . فهو مستهام بالخلق ، قليل العناية بالهدم والتدمير . وهو على اعتزازه بسترته الحربية بما تحمل من اوسمة جميلة وازرار نحاسية ، قد أخذ يرى الحرب في ألوانها الحققة فهو في (الفزوة) التي كتبها في عامه الرابع والعشرين يبعث بأولى صيحاته محتجا على الروح العسكرية : ( هل استحال على الناس اذن أن يعيشوا في سلام في هذا العالم الملىء بالجمال تحت هذه السماء المرصعة بالنجوم والتي تنفسح الى غير نهاية . كيف استطاعوا في مكان كهذا ان يبقوا على شعورهم بالكراهة والانتقام وحب القضاء على بنى جنسهم ؟ . ان كل ما انطوى عليه القلب البشرى من الشر ينبغى له ان يتبخر اذا مسته الطبيعة ، وهى أصرح وأصدق من تكلم عن الجمال والخير ) .

حتى كان ذلك الوقت لم يشهد في مناوراته العسكرية غير تمثيل الحرب . لكنه في عام ١٨٥٣ يواجه الحرب نفسها مواجهة واقعية . لقد أعلنت روسيا الحرب على تركيا ودعى تولستوى ليؤدى واجبه ليزيد من مجد القيصر .

وكان في أول الأمر تجرفه حماسة وطنية وما أسرع ما استحال وحشا مفترسا كغيره من شباب أمته . فقد طفت عليه موجة من الحماسة الفاضلة فذبح الأتراك وحمد الله على نصيبه من المذبحة .

ولكن لم يمض زمن طويل حتى افاق من نشوة التقتيل . فقد ألف في خلال حرب القرم ثلاثة كتب أولها يتوهج وطنية متطرفة مسرفة . ويتحدث في ثانيها حزينا عن تبادل التقتيل بين بنى الانسان . وينعى على حكام

العالم في مقدمة الثالث انهم جعلوا من رعاياهم وقودا للمدافع .

وكلما اطلال النظر الى الحرب استبانته له في كل بشاعتها وتكرها . فهو منذ اليوم مكرس نفسه لحرب عالمية ضد الحرب . كتب في مفكرته في الخامس من مارس سنة ١٨٥٥ ( لقد اهتمت الى فكرة عظيمة ، احس بقدرتي على ان اقف عليها كل حياتي . تلك الفكرة هي انشاء دين جديد ) . دين اللامقاومة . دين الأخوة الدولية دين السلم العالمية .

- ٣ -

وفي عام ١٨٥٦ اعتزل تولستوى خدمة الجيش وعاد الى سانت بطرسبرج (ليننجراد) وكانت شهرته فيالجندية والكتابة قد سبقته الى هناك ، ففدا في الحال علما من اعلام الأدب ، فرحب به اعلام التأليف والفن في المدينة في مجالسهم الخاصة . لكنه وجدهم جميعا من المدعين الذين لا يلائمونهم فهم يرون انهم الصفوة المختارة وانهم اصحاب عقول سمت على عقول البشر . . وانهم فخر الخليقة وتاجها . وهم يكتبون لأهل الثقافة والفكر ، اما باقى البشر فقير جديريين بأن يسهموا في افكارهم السامية . اما تولستوى فموقفه على النقيض من ذلك تماما . فالادب عنده هو انجيل الجمال والحكمة الذى يجب ان يملكه الجميع . فكتب ليعلم الكثرة بدلا من يكتب لتسلية القلة .

وانه ليكتب للعامة وهو يعلم حظهم من الذكاء حق العلم . يدرك تماما جانبهم الزرى الوقح ، لكنه يشعر



كما يشعر الأمير (نيخلودوف) أنهم يتحسسون النور بفريزتهم ، وإنما هم ينتظرون زعيما معلما يهديهم السبيل « اذهب الى الناس لتعلم ما يريدون وحاول ان تفهم ما يحتاجون ، وأعنتهم على تحقيق حاجتهم » .

وأنشأ مدرسة لفلاحى (ياسيا بولبانا) وحاول فى هذه المدرسة الا يجعل من نفسه أستاذا ، بل تلميذا من التلاميذ . ذلك بأنه يعتقد أنهم جميعا ليسوا غير أطفال يحاولون تهجى المقطع الأول من كتاب الحياة الفامض .

وقد أغلقت الشرطة المدرسة ، وقدمت النصيحة الى تولستوى بأن يدع الفلاحين وجهلهم ، ثم أقبلت أشهر من المرض واليأس . فمات اخوان له من السل، وخشى تولستوى أن يكون هو الآخر قد أصيب بنفس المرض . ففقد إيمانه بالخير وبكل شيء ، وفكر فى الانتحار مرة أخرى .

فى هذه المرة انقذه الفن ، وحبه لفتاة فى السابعة عشرة هى ( صوفيا اندريانينا بهرس ) .

وتزوج من هذه الصبية وكان عمره ضعف عمرها تماما . . ثم بدأ فترة من السعادة الصافية امتدت نحو خمسين سنة . وكانت الكونتيسة تولستوى موهوبة فى بابها . فقد صارت « الزوجة الصحيحة لمؤلف » اذا استعرنا عبارته . فهى تكتب ما يمليه عليها ، وتستثير خياله ، وتشجعه ، وتبذل جهدا مضنيا فى نسخ مخطوطاته ، وتكون نموذجا لبعض من افتن شخصياته .

وكتب تحت تأثير سعادته آيتين من أعظم آياته . . مأساة العاطفة الفردية ( آنا كارنينا ) وملحمة العذاب (الحرب والسلام) . فى قصة (آنا) زوجة (كارنينا) يكمل

تولستوى موضوع قصيدة جيته التى يقول فيها ( ان  
القوى السماوية تأتى بنا الى الحياة وتضطرنا الى  
الخطيئة ، ثم تدعنا لخطيئتنا والمنا ) فتظل (آنا) أعوامها  
الثمانية الأولى من حياتها الزوجية مخصصة لزوجها  
سعيدة بحب ابنها الصغير ( سروز ) وبعد الطفل أمه  
كأنها الهة . وكانت الأمور ستجرى رخاء لولا ان (آنا  
كارنينا) قد زارت أخاها ( ستيبان ) زيارة مشثومة فى  
موسكو .

فهنا فى صحبة النبلاء الروس المرحين الذين لا قلب  
لهم ، تقابل السيدة الكونت (فرونسكى) وهو شاب دمث  
وسيم ثرى ، يحب الجواد الطيب والحرية الطيبة والمرأة  
الجميلة . فما أسهل ما وقع كل من (آنا كارنينا) والكونت  
فرونسكى من نفس صاحبه . ولم تكن (آنا) أولى ضحايا  
فرونسكى فهو حين لقى (آنا) كان متورطا فى غرام أخت  
زوج ستيبان وكانت ممثلة ناشئة ساحرة محبوبة ، من  
فتيات موسكو ، وكان (لكيتى) كثير من المعجبين . لكنها  
تؤثر عليهم جميعا اثنين ، فرونسكى الذى تحبه ،  
وكوستانتين الذى تعجب به وكان ( كوستانتين لفين )  
هذا نبىلا من موسكو شابا ميسورا جادا ذا عقل كثير  
الريب . فهو يعجز عن التصديق كعجزه عن التكذيب  
وهو يتفرج كما يتفرج العاجز الساخر بينما تتكشف  
المأساة لعينيه . فهو يلاحظ آنا وفرونسكى كيف ينجذب  
كل منهما الى صاحبه دون ان يكون لهما فى ذلك اختيار .  
وان الفريستين لتدركان ذلك ، وان لم تستطيعا شيئا  
لوقف هذا الانجذاب .

و(آنا) شديدة النهم الى حب فرونسكى وشديدة  
الخوف من هذا الحب فهى تحن الى حب ابنها لهما

وحماية زوجها اياها ، فتقرر ان تختصر زيارتها لموسكو  
وتهرب من افتتاحها وتبتاع تذكرة الى سانت بطرسبرج .  
وفي القطار تجد فرونسكى . لقد قرر ان يتبعها .

ويتقابلان كثيرا في مجتمعات سانت بطرسبرج . وينظر  
المجتمع الى علاقتهما نظرة الرضا الذى يحبس الضحك .  
انها مسلاة ممتعة .

اما زوج (آنا) فيظهرها على حماقتها في هدوء . ثم  
يغمض عينيه في حكمة . فهو راغب عن التورط في فضيحة  
طلاق ، زاهد في تعريض حياته لأخطار المبارزة .

لكن الأمور تسير الى غاية اذ يحدث حادث في سباق  
الخيول ويصاب فرونسكى اصابة بليضة وتبدى ( آنا )  
قلقها امام الملائ . فاذا عنفها كارنينا اعترفت له بحبها  
لفرونسكى .

وتضرع (آنا) الى زوجها أن يسرحها . لكنه يصمم  
على الانتقام ويضطرها أن تبقى تحت سقفه .

ورغم ما يصيب (آنا) من عذاب وهوان وقهر ، فانها  
تقيم على علاقتها السرية بفرونسكى ، تمرقها ثلاث  
عواطف : حبها لولدها الصغير سيروزها وولاؤها لكيتى  
التي غصبت منها فرونسكى ، وحبها لفرونسكى .  
وتستطيع كيتى آخر الأمر أن تنسى فرونسكى وتتزوج  
من كوستانتين لفين . وهكذا تزول احدى الصعوبات  
من موقف (آنا) لكن الصعوبتين الآخرين : حبها لابنها  
وحبها لفرونسكى لايزالان على عهدهما في منتهى المرارة  
والشدة .

وينشأ الآن تعقيد جديد اذ تضع آنا مولودة ، ويبدو  
كارنينا سمحا شهما نحو ابنة فرونسكى ولكن فرونسكى



في هوانه وذلته يحاول الانتحار .

وساء موقف آنا فصار لا يحتمل فان عليها ان تختار بين ( سيروزها ) وفرونسكى فتختار فرونسكى .

لكن القصة لم تنته بعد . فلا يزال لدى الكاتب خيط يسهم به في خطة القصة . فتسافر آنا وفرونسكى خارج البلاد ويمضى وقت يصيبان فيه شيئاً من السعادة من حبهما المحرم .

ثم يعودان الى روسيا ليستأنفا رجاء كارنينا ان يطلق آنا . ولكن كارنينا يرفض الطلاق . فيشتمل على آنا الهم وتوعك المزاج . ثم يأخذ لهب الفيرة في القضاء عليها فهي تتهم فرونسكى بالخيانة . وليس لها من منقذ غير النسيان . . ذلك الموت ابان الحياة الذى يجلبه المورفين . ثم تكون النهاية انتحارها تحت عجلات القطار . في (آنا كارنينا) يصور تولستوى الصراع الروحى فى الفرد وفى (الحرب والسلام) وهى قصة تعالج غزو نابليون لروسيا ، يصور الصراع الروحى فى الجنس البشرى ، وجهاده فى الانتقال من الهمجية الى المدنية ومن سفك الدماء الى الوثام ، ومن الكراهة الى المحبة . اذ لا يكفى حل المشكلة الفردية ولا بد من حل مشكلة البشر كافة . فحين استلقى الأمير اندريه بطل (الحرب والسلام) جريحاً فى استرلتز تراءى له فجأة معنى السلام الذى يبطنه العالم (رأيت السماء التى تترامى الى غير امد تتأمل مطرقة هياج الأرض وتفاقتها) وقد ملأته هذه اللوحة بسرور لا يوصف . فهذا السلام الباطن ، هذا النور الذى يومض بين الحين والحين فى ظلام الحياة ، هو شئ يتلهف تولستوى على ان يظهر عليه بنى جنسه .

ومع ذلك فهو يشعر انه لا يستطيع ذلك عن سبيل فنه .  
فأخذ يفكر في نوع جديد من الفن . فن ايجاد سبب  
من الرحمة يصل بين الانسان وأخيه الانسان ، ليهدي  
الناس الى النور ، لقد فقد ايمانه بالكنيسة الأرثوذكسية ،  
ولم يهتد الى عقيدة أخرى بدلا منها ، ما خلا اعجابه  
المؤقت بروسو .

وعاد تولستوى الى الكنيسة أثناء بحثه عن العقيدة  
الحقة فبحث مبادئها وعباداتها ، وظل ثلاث سنوات  
لا يتخلف عن شيء من طقوسها ، ولكن لاجدوى « أخشى  
ان يكون تشددى في اتباع سنة المسيح حائلا بينى وبين  
التقليدية ، فالكنيسة الروسية قد صارت مؤسسة  
تجارية فيما أعلن . فما أبلغ تشدد القساوسة في فرض  
أوامر القيصر ، وما أشد تهاونهم في فرض أوامر المسيح » .

« وهكذا قطع ما بينه وبين الكنيسة ووصل ما بينه  
وبين الله » فأصبح نبي دين جديد أو بعبارة أدق صار  
مفسرا جديدا للدين الذى كاد أن ينسى ، دين بوذا  
واشعيا وكونفوشيوس والمسيح ، هذا الدين الذى أمل  
ان يكون زعيمه المنكر لذاته ولسوف يستغنى عن كل  
الطقوس والكنائس والقسس : ويعتمد على بعض التعاليم  
البسيطة (لا تكن لأحد عدوا . أملك زمام نفسك ولا تركز  
الى العنف) هذا هو الجانب السلبي من عقيدته . أما  
ناحياتها الموجبة فهي الاحتجاج والانكار فهو ينكر على  
النبلأ اسرافهم ، وعلى القسس تعصبهم ، وعلى القيصر  
طغيانه ، « فأصبح شيوعيا ومنشقا على الكنيسة  
وثائرا . . . أى صار بايجاز حواريا صحيحا للمسيح » ،  
فهو مستعد لأن يبذل شهرته ومركزه وثروته وحياته  
نفسها ان تطلب الأمر خدمة لبني الانسان . انه ليلبس

عبادة الفلاحين ويخالط آخط الناس على أساس المساواة .  
لقد تواضع فارتفع . فهو قد نزل من عزلته الأرستقراطية  
الى المستوى العادى للبشر وتمكن بفعله ذلك من السمو  
بالانسانية الى ذرى جديدة من السمو الخلقى .

وهتف العالم بتولستوى نبيا . ولكن أسرته تعده  
أحمق . وأخذت زوجته تخشى عليه الجنون . كان  
أبنائه يتشاءبون ويشيخون عنه بوجوههم كلما تحدث  
بالأخوة بين البشر . فحياة الايثار التام قد بدت لهم آية  
على الجنون لا مرأى فيها . أنه لا بأس عليه مطلقا أن  
يضحى بنفسه ، كما قالوا . لكن ماحقه فى أن يضحى  
بأسرته على مذبح مثله العجيبة ، وهكذا أصبح غريبا  
فى بيته .

كتب رسالة الى صديق « لعلك غير مصدق . ولكن  
انى لك ان تتصور مدى عزلتى أو مدى زراية الناس  
بشخصى أو هوان أمرى عليهم . لكنه على ما يلقاه من  
عذاب عقلى يمضى قدما فى سبيله فيفسر مبادئ المسيح  
بلغة القرن التاسع عشر » . لقد حاول المسيح أن ينشئ  
مملكة الله أما تولستوى فيؤمن بإنشاء ديمقراطية  
الانسان فكتب عددا من المقالات والقصص توضح أصول  
العواطف الانسانية والتسامح مع المسىء . وكان جزاؤه  
على ذلك ان حرمة الكنيسة الأرثوذكسية من رحمتها  
عام ١٩٠١ .

فاذا علت السن بتولستوى بدت فى تعاليمه نفمة  
جديدة غريبة . ذلك بأنه قد صار غريبا بين بنى جنسه  
وأولاده وزوجته ، فأخذ ينظر الى الاختلاط الجنسى  
كله فى ضوء عجيب صوفى ، فقد أصبح ناسكا . وكان  
فى سابق أيامه قد نهى على الفسق ، أما الآن وقد بلغ



السبعين فهو يدعو الى الانتهاء التام عن كل اختلاط جنسى . « ان من نظر في اشتهاى الى امرأة ، ولو كانت زوجته فقد ارتكب معها جريمة الفسق » .

ان هنالك معنى يدعو الى الرثاء فى نظرة ذلك الرجل العجوز يحاول ان يعيد صوغ العالم بحيث يلائم ما اصابه من خور وعجز ، حتى لقد ذهب الى مذهب افناء الجنس البشرى عن سبيل تقرير العزوبة المطلقة لكن عقله كان ينسل منه حينذاك . وكان التصوف قد ملك عليه زمام امره تماما . فهو فى قصته الأخيرة (البعث) يودع روح قديس خاطيء فى جسم شاب . فشخصية نيخلودوف دراسة فى التناقض . ومما هو جدير بالملاحظة ان تولستوى قد سمى بطل قصته الأخيرة باسم بطل قصته الأولى . ذلك البطل فى القصة الأخيرة يبدأ محتالا وينهى حياته شهيدا . ويعترى هذا الرجل فى ظرف أعوام قليلة من التحول الخلقى ما كلف تولستوى عمره بطوله . وان البعث لمن أجمل قصائد الرحمة ، ولكنها من نتاج رجل عجوز .

#### - ٤ -

كانت مأساة تولستوى ان الحياة قد امتدت به بعد ان فقد عظمته . وجعل فى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته يدعو الى مثل اجتماعية وسياسية وخلقية ، ليس اليها من سبيل الا فى عالم المثل انعليا . . . او عالم العجائز . وكلما مر الزمن زاد ايفاله فى الفلسفة الساذجة . وجاء آخر فصل من حياته كما جاء كل ما فعل طوال حياته مزاجا عجيبا من الغباء والسمو .

فاذا حل يوم ٢٨ من اكتوبر عام ١٩١٠ وكانت الساعة الخامسة صباحا . هرب تولستوى من مأواه فى بيته . ومضى يبحث عن السلام فى العراء ، وكان فى عامه الثانى بعد الثمانين . وكان يلبس قميص الفلاحين ، وقت ان اضعفت السن على وجهه جمالا ، ورسم الألم فيه غصونا ، وجعل يهيم كما فعل بوذا ، ويخبط فى شعاب الأرض . لقد هجر بوذا بيته يلتمس الحياة . أما تولستوى فقد مضى عنه يلتمس الموت .

اراد ان يموت وحيدا ، لقد وهب حياته الشخصية للرحمة والثناء ، ولكنه يفر الآن من رحمة ذويه وورثائهم ، وظل أياما عدة يتنقل من قرية الى قرية ، وسقط آخر الأمر على قارعة الطريق ، ليرقد رقدته التى لا ينهض منها أبدا . ويقول للطبيب الذى عاده (ان فى العالم ملايين من البشر يتوجعون فلماذا لاتفكر الا فى ) .

فاذا كان يوم الأحد ١٠ نوفمبر عام ١٩١٠ وجد السلام الذى ظل ينشده طول حياته ، وكانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحا بقليل حين استرخى جسمه الحطيم من الألم لهذا الخلاص العظيم الأخير . « يا لك من أخ مبارك أيها الموت » .

## جى دى موباسان

( ١٨٥٠ - ١٨٩٣ )

### - ١ -

ولد بقصر ميرونمسئل بنورمانديا ، وكان ينحدر من  
جهة الأب من سلالة ارستقراطية تدهورت الى مباءة  
الافلاس ، وكان ينحدر من جهة أمه من سلالة من العامة  
سمت الى الخلق الفنى - فكان دمه مزاجا عجيبا من  
العناصر - نار الاباحية ، وحساسية الخيال ، ومرارة  
خيبة الرجاء ، والايقاع الشعري البارد للبحرالنرمندى .  
كان أبوه اباحيا يخالط النساء ، ساميهن ودانيهن ،  
وكانت أمه حاملة تجلس تاتمس الدفء فى لهب الذكرى ،  
ذكرى أخيها الشاعر الذى اخترم عبقريته الموت العجلان .  
لقد عرفت الرجل الكامل فى أخيها ، فعرفت كيف ترثى  
للحطام الملتوى فى زوجها . وكانت تعيش على الأمل  
الدائم .. انها فى ابنها ستعيد صوغ الحطام الى رجل  
سوى .

ونشأ الطفل الذى انعقدت به آمالها يفهم الرجل  
الداعر ويعبد الالهة النقية . وكان كلما تشوش فكره  
لهذا الاتحاد التعس للأمزجة التى منها تخلق ، ذهب  
الى البحر فوجد فى وجه البحر كل سرور الخلق ووحشيته ،  
وكان (جى) يعتس حول الكهوف على طول الشاطئ ،  
وفى اثره كلبان ، وينفخ الصيادين الهبات ليصطحبوه فى  
بحثهم عن السمك فى ضوء القمر .



وكان يشارك في كل مباحج الفلاحين النرمنديين في هذا الضباب الأغبش ، والهواء البارد ، الذى يهفو من البحر كأنه نسيم يبعث الحياة ، وكان يراقص الفتيات الفلاحات في المواسم الريفية ، بينما القيشارات تعزف لحنا ضاحكا تحت أشجار التفاح ، ويسير مع مواكب الرجال التى تحمل المشاعل كأنها ثعابين حمراء فى الليل .

وكان يتناول قطعة من الجبن ، ويعب كأسا دهاقا من خمر التفاح مع أى صديق أو شخص غريب فى المنزل ، وكان يرسم الخطط الواسعة مع قدامى البحارة على التلال ، ويشرف معهم من خلال مناظرهم المقربة على حافة المجهول ( ان عروقى يجرى فيها دم الجائلين فى البحر ، وابهج ما يبهجنى هو أن أبحر بقاربى ذات صباح ربيعى الى موان مجهولة ) .

كانت حياته دفعة عاطفية من الشمال البارد . ولكن أمه ، وأحبب بها من أم ، قد صنمت على ان تتحكم فى الريح وتحدد اتجاهها . فبعثت به وهو بين العاشرة والعشرين الى المدرسة الكنسية فى (ايفيتوت) ولكن (جى) لم يكن يبنى ان يصير قسيسا . فأحدث ثوبا فى برميل النبيذ بمخزن كبير الآباء ، ودعا رفاقه فى المدرسة ان يشربوا على حساب مائة قداس . وقارف بعض المخالفات الأخرى فطرد ... الى الحرية .

وكان يحب دعاياته العملية . تنكر يوما فى ثوب شابة وقدم نفسه الى عانس انجليزية . فقالت العانس فى خلال الحديث (تقولين انك قد أتيت من سفر طويل ، فمن أين أتيت؟) ( لقد أتيت لتوى من نوميا ) وهو موطن فرنسى للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

فاستمرت المرأة المذهولة تقول في قلق ( فتاة صغيرة  
تسافر وحدها ؟ )

«ولكن - كما ترين - لى خادمتان» وضيق فستانها  
في خفر وفي عينيها معنى بعيد ( ولى أيضا فارس وجندى  
مدرع لحراستى ) . فلما سمعت العانس هذا الكلام  
كاد يغمى عليها .

وقد اتخذ عشيقته الأولى وهو في عامه السادس عشر،  
وكان يدعو نفسه (بالنهم الى الحياة) وسرعان ما قدم  
له عالم نرمنديا الصغير كل ما لديه من رقة ومتعة .

## - ٢ -

والتحق باللوقيون ليعد نفسه لدراسة القانون ،  
ووفق الى الحصول على درجة مقبول . ولكن حدث  
بعد ذلك الفوز البروسى عام ١٨٧٠ عن طريق سيدان .  
فالتحق موباسان بقسم الامدادات بجيش فرنسا ، ولم  
تكن حياته مبهجة .

وبينما الجيش الفرنسى يتقهقر ، كان يقرأ شوبنهاور  
ويكتب قصائد الفزل ويحلم بالثأر من الألمان . فتشكلت  
عبقريّة الشاب تدريجا من ثلج الكراهة ونار الحب .

فلما انتهى الصراع ، ذهب الى باريس يبحث عن عمل  
فان دراسة القانون لاتقوى على نفقتها الآن أسرته العريقة  
التى أصابها الفقر . فالتحق بوظيفة كاتب فى البحرية ،  
ولم يدر أحد من رؤسائه أو زملائه الكتبة ، ان أحد  
الأسود البشرية الضخمة قد وقع فى الأسير . ولم يدر  
باقى باريس عنه شيئا أو يحفل بأمره فان خيرا كثيرا

في عالم هذه المدينة ، يحتجب في عليات المنازل ، حيث  
الفنانون والشعراء يتوجهون أخلأهم لعالم لا يكثرث .  
وكان موباسان يسير في الشوارع ليلا ، يتفرس الوجوه  
تحت مصابيح الغاز بحثا عن علامة يتعرف بها على أحد ،  
عن آية على روح زميل ، فلم يجد .

ثم ناداه داعي الصداقة انه صوت السين ، فهو في  
الفجر والمساء وفي أيام الأحد في الساعات التي لا تخطر  
بالبال يهدى فورته الكبيرة بالتجديف في النهر ذهابا  
وجيئة .

أن نهر السين قطعة من البحر ، وأن شذاه ليجذبه  
من المكتب المغبر ، ومن المقاهي العابقة برائحة النبيذ ،  
ومن أحضان النساء المربيات ، أنه جنونه وغشيقته  
وشريكته الحانية القاهرة ، التي تنطوي على المتناقضات  
العنيفة . نعم انه النهر الجميل الهادي المتقلب الشدي  
النتن ، المليء بالأحلام والأقدار ! وكانت روحه تنضج  
تدرجا يغلفها الضباب ، وتنزلق بين أخيلة هياكل السفن  
ومداخنها التي تحدث في صغر خشن كئيب ، عند  
ملتقى العوالم الثلاثة ، السماء والأرض والبحر .

« انى أجدف وأستحم ، وأستحم وأجدف . ولقد  
تعودت الفيران والضفادع على رؤية الفانوس فوق قاربي  
في ساعات الليل ، حتى انها تخرج لتحيني تحية المساء .  
وانى أسير قاربي كما يسير غري زورقا صغيرا ، وان  
أصدقائي من أصحاب الزوارق في (بورجيفال) ليدهبون  
أعظم الدهش حين أبرز لهم في منتصف الليل ، أطلب  
زجاجة من خمر (روم) » . الليل والنهر وروح رجل  
عظيم واحد .

وقابل (جوستاف فلوبر) عن طريق صلات أسرته ،



وكان مؤلف مدام بوفارى عبقرىا بوهيميا يصطنع فى  
الأدب من التجارب مثلما يصطنعه فى الحياة من هم أكثر  
جسارة . وكان قد قدم للمحاكمة على قصته الصلبة  
الجبين ، وعاش مهملًا كأنه مخلوق محجور عليه ، لا يحب  
أحد أن يلمسه . بيد أنه كان غير آبه ، أنه لم يمنع  
العالم غير حطام نحيل لذاته ، ويجلس كأنه اله فى معبد  
فنه الرائع الذى احتفظ بمفتاحه لنفسه فحسب .

لقد كان يبحث عن حوارى كامل ، وكان موباسان  
يبحث عن أستاذ كامل .

والآن يلتقى الروحان الهائمان النصفيان اللذان استويا  
فى الوحشة ، فيندمجان فى روح واحد ، يهيم مظفرا .  
وعلى انفراد .

وظل (جى) طيلة سبع سنين يأتى أيام الأحد حاملًا  
قصائده ومسرحياته وقصصه الى ذلك العملاق العريض  
المنكبين ذى الشارب الضخم والعينين القاتمتين ويشهده  
يجرى قلمه الأزرق فى كتاباته ، فإذا كان المساء افترق  
الصاحبان بعد نكتة بذيئة من كليهما ، يخفى بها قلبا  
موجعا .

واستطاع التلميذ تدريجا أن يفقه سر عبقرية أستاذه،  
أنها عبقرية مجيد للرماية ، استطاع أن يهتك نفاق  
الحياة بأسهم فتاكة .

- ٣ -

ومضى وقت طويل قبل أن يحظى موباسان بالتفات  
الناس ، وكان يعانى ألوانا رهيبة من الصداق ، لكنه كان

- ١٠٤ -

ينعش نفسه بالفوص من ( قنطرة مغرية في منتصف الشتاء ) ويبرز في المياه المتجمدة ليوجه دعاة بذيئة الى من تجمع من الناس .

وكان يروى قصصا ماجنة لآخوانه الكتبة في البحرية، ويهمس لمن يقابله من السيدات في الحفلات بألفاظ يجنح فيها الى التورية . وكان الجميع يقولون عنه ( انه أفجر شاب في باريس ) . انه أفجر الشبان والمعهم . وهو على المعية - أو قل للمعية - كان يزج بنفسه دائما في المتاعب ، فكان الباريسيون ذوو السمعة الطيبة يعرضون عنه ، اذا كتب مسلة ماجنة وأخرجها عند رسام منبوذ من طائفته .

ودعته الشرطة الى المحاكمة حين نظم قصيدة غير خلقية ، ونشرها على صفحات إحدى المجلات المنبوذة .

وظل الصداع يعاوده دائما ، وكلما اشتدت عليه وطأته قضى الساعات يتأمل وجهه في المرآة . لعله يقاسى من إرهاق شاق في غرامه ، بفتاة الشارع مثلا التي قابلها مساء أمس ، تلك القريبة عليه التي دخلت حياته وخرجت منها ثانية في خلال ثلاثين دقيقة .

وزاد صداعه وقلقه ، وخصوصا عند مقدم شتاء باريس . كتب الى أمه وكان يعد حبه اياها نقطة الثبات في حياته « ديسمبر يرهبنى . انه الشهر الأسود ، الشهر الكريه العميق ، الذي يمثل منتصف ليل العام . لقد أعطونا مصاييح في المكتب ، وفي خلال الشهر سنوقد النار . . . وحين أكون وحيدا أمام مكتبي ومصباحي الحزين متقد أمامي ، كثيرا ما تعتريني لحظات يبلغ منى القنوط فيها انى لا أدري الى أين أتجه » .

ولكنه كان دائماً يتجه في النهاية الى قصصه ، فيلتقط  
حكايات شتيته من شقاء صيائد السمك والفلاحين  
والمثلات والعاشرات والكتبه . حدث مرة انه كان على  
مائدة اميل زولا ، وكان المدعوون سباحين في خيصال  
الشراب ، حين تكلم المضيف عن مبادئ الأدب الجديد  
الذي يكتبه ( لنذكر ان علينا ان نقفز الى النجوم من  
سلم الملاحظة الدقيقة ) .

« واقترح أحد المدعويين ان يكتب كل مناقسته عن  
حربنا ضد البروسيين - لا على النحو الذي سار عليه  
المؤرخون والساسة في كتاباتهم عن الحرب ، بل على  
النحو الذي تخيلته زبانية الجحيم ، وكما وقعت على  
الأرض . فلنحطم كل خداع ولنبين موطن البطولة  
الحقة » .

وأسهم (جى) في ذلك المجلد بقصة عن البطولة الحقة  
(كرة الشحم) كانت ( كرة الشحم ) امرأة محترفة من  
بنات الهوى ، يحبها الناس حين العجلة ويزدرونها حين  
الدعة . وذات يوم في خلال الحرب الفرنسية البروسية  
وجدت نفسها على سفر من باريس الى هافر ، تقلها  
عربة مع جمع من كرام القوم .

وما كاد هؤلاء القوم الدمثون يتعرفون على حقيقتها  
حتى ناوا بجانبهم عنها . وباعدوا بينهم وبينها . ولكنهم  
حين تبينوا انها وحدها كانت بعيدة النظر فأحضرت  
معهها غذاء شهيا نسوا زرايتهم بها ، واقبلوا كراما على  
ماعرضته عليهم من الطعام . وفي هذا المساء وقفوا عند  
فندق كان الجنود الألمان قد احتلوه . فأمر قائد الحامية  
بالقبض على المسافرين اجمعين وصرح بأنه لن يطلق سراحهم  
حتى تقضى السيدة السمينة ليلة معه . فرفضت



الانصياع لأمره في غضب ثائر. ولكن رفاق السفر حرصا على حريتهم ضرعوا اليها والحفوا عليها بشتى الحجج حتى استسلمت آخر الأمر .

وفي الصباح التالي استأنف السفر رحلتهم وعادوا من جديد الى النأى بجانبهم زراية بتلك المرأة التي أقدمت على التضحية الكبرى من أجلهم . فهم في هذه المرة قد احضروا غذاءهم ولكنها نسيت أن تفعل بسبب ما كان من اضطراب ففتحوا حقائبهم وأقبلوا على الطعام نهمين . ولم يعرضوا عليها كسرة من زادهم . فشارت عبراتها وتلألأت في مآقيها . فصفموا ورعا وتقى ( انها دموع العار ) .

في (كرة الشحم) يبين الكاتب عن سخريته وزرايته بقباء البشر. على أنه في كثير من قصصه الأخرى تتحول زرايته الى العطف . ومن هذه القصص قصته (العقد) ومن النقاد من يعدها القمة التي تنهى اليها القصص الفرنسي .

وقصته العقد هي المسلاة المؤسية لدام لوازيل، وهي امرأة ولدت جميلة فقيرة كانت تحلم بالأمراء فزوجت من أحد الكتبة ، وكانت تحلم بالقصور فسكنت في دور سفلى حقير . وليس لذيها من طيب ولا حلى فاخر . وقد كانت تتوق الى هذين كما يتوق الأعرابي الذي يجوب البحر الى مسقط رأسه من البیداء .

ولكن بقيت لها نعمة واحدة ، صديقة غنية كانت زميلتها في الدير ولكنها لم تكن تزور هذه الصديقة لأنها كانت تشقى برؤية الأشياء التي لا قبيل لها بشرائها وذات مساء أقبل زوجها الى المنزل جذلان فرحا ( أنا مدعوان الى حفلة ساهرة يقيمها وزير المعارف وزوجته) .

فقلت ( ولكن ليس لدى ما البسه ) فاشتري زوجة لها فستانا لكنها لم تزل غير سعيدة . ( ليس لدى حلى ) .  
( لماذا لاتذهبين الى صديقتك مدام فورستير وتطلبين ان تعيرك حليها ) .

فصاحت صيحة الفرح ( نعم هذا صحيح . كيف لم يخطر ببالى ؟ ) وذهبت الى صديقتها فاستعارت عقدا ماسيا جميلا . وكانت افتن السيدات فى الحفلة الساهرة . وعادت الى بيتها نشوى . واخذت تخلع ملابسها امام المرأة ثم ندت منها صرخة مباغتة ( لقد فقدت عقد مدام فورستير ) وعبثا ماجرى من بحث عنه فى أنحاء باريس ( يجب ان نستطيع على نحو ما رد العقد ) وسارت مع زوجها من صائغ الى صائغ ، حتى عثرت على عقد يشبه العقد الذى فقدته .

( ما ثمن هذا ؟ ) ( اربعون ألف فرنك . ولكنى ابيعه لك مع التضحية بستة وثلاثين ألفا ) وتأت ذلك زيارات لهشى الى اصدقائها والى الصيرفيين والمرابين والمقرضين ، حتى استطاعا اخيرا لم اشترى الستة وثلاثين ألف فرنك . واعادت السيدة لوازيل العقد ، ثم سخرت نفسها عبدة للوفاء بالدين . ومضت أيام كانت فيها تعمل وتفصل وتذلك الأرض وتلطح يديها وتطمس جمالها ، وتنزف صحتها وكان زوجها يكدح معها فى موازنة حسابات التجار . وكثيرا ما كان يسهر الليل بطوله لينسخ وثيقة بخمسة سنت للصفحة . وظلا على هذه الحال عشر سنين واستطاعا آخر الأمر الوفاء بكافة التزاماتهما : اصل الدين وارباحه جميعا . وذات يوم من أيام الأحد كانت السيدة لوازيل ، وهى الآن امرأة عجوز مرهقة ، تسير فى ( الشانزلزيه ) وسرعان ما رأت سيدة جميلة

شائفة تسير في الاتجاه المقابل . انها السيدة فورستير .  
حيثها السيدة لوازيل ( عمت صباحا ياجين ) فنظرت  
اليها السيدة فورستير دون أن تعرف من تكون ( الا  
تعرفيننى ياجين اننى ماتيلدا لوازيل ) .

( اى ماتيلدا المسكينة لكم تغيرت )

( لقد أصابنى عنت شديد هذه السنين . وكله من  
أجلك ) .

( من أجلى ؟ كيف ذلك ؟ )

(لقد فقدت العقد الذى استعرتة منك . لكنى اشتريت  
عقدا آخر يشبهه تماما . وظللت أفى بثمانه عشر سنوات)  
فمس ذلك شفاف قلب السيدة فورستير فأخذت اليدين  
المسكينتين الخشنتين فى يديها ( اى ماتيلدا المسكينة  
لكن عقدى لم يكن أصيلا . لم يكن يساوى الا خمسمائة  
فرنك على الأكثر ) .

- ٤ -

وفى خلال ايام الصداقة الوثيقة بين جوستاف فلوير  
وموباسان ، قدم فلوير لصاحبه نظرية للنجاح الأدبى  
تتكون من ثلاثة أجزاء : لاحظ ، ولاحظ ثم لاحظ أيضا .  
فلما مات فلوير على حين بفترة دخل (جى) تلك الغرفة  
التي ظل يزورها ايام الأحد طيلة سبع سنين ، وصعد  
الدرج الى حيث أسجى الرجل الميت ، ولم يكن هذا  
المراقب يقدس شيئا من الأشياء .

فبينما هم يفسلون الجثة ويعدون لها للدفن ، كانت  
عيناه وعقله فى شغل بجمع التفاصيل ليستخدمها فى



فنه مستقبلا . وبينما هو يسير وراء عربة الموتى الى المدفن لاحظ ان بقرة تنظر من فوق سياج وتخور في ضوء الشمس لشيء لم تفهمه .

ولاحظ عند القبر كيف أرهق الدفانون غير المهرة وتصيب عرقهم من شد أحبال التابوت وكيف مال التابوت الى ناحية وانكد فى الأرض ، ورفض دخول القبر حتى تعاون فى ادخاله رجال أكثر عددا . فقفر قلبه من أثر تلك الرعدة اللهى للفنان لعدم اتساق الأشياء . فحمد الله على حضوره فى هذه اللحظة ليدرك وحشية الحياة وعدم جدواها . انه حس القصصا ص ، غريزة طبيعية كأنها حاسة الشم عند كلب الصيد ولكن هناك قلبا كذلك .

وكان أحيانا يلقي بقلمه جانبا ، ينتظر ، ويتلوى من الألم ساعات حتى ينجاب الظلام عن عينيه . وكثيرا ما كان يستنشق (الأثير) ويميل على أبخريته ويحلم بانتهاء آلامه . وكان يشتري قنينات صغيرة من العقاقير المشروبة التى كانت تلتهم كل ما ادخره من مال لعطلة صيفية .

ولكن كان يكمن دائما وراء تأوهات الألم نفمة من الجمال الوثنى (أنى أحب السماء كأننى الطير ، والغابات كأننى الذئب ، والصخور كأننى التيتل ، والعشب العميق كما يحب الحصان ان يتمرغ فيه ، والماء الصافى لأسبح فيه كأننى سمكة ، انى الأحس بأنه يتردد على خاطرى شيء مشترك فى كل حيوان ، بعض من كل الفرائز والرغبات المهمة للمخلوقات الدنيا فأنا أحب الحياة كما تحبها هذه الحيوانات لا كما تحبونها انتم معشر البشر أحبها دون أعجاب بها . ودون تدله شعرى فى حبها ، ودون تحليق الى السموات العليا . أحبها حبا عميقا حيوانيا،

حبا زريا ولكنه مقدس ) .

انه يتظاهر انه لايراف بالانسان ، وتكذبه في هذا قصصه ( انى أستطيع ان أشج جمجمة شاعر لمجرد رؤية ماذا في داخلها ) على ان الآلام التى تعانيها العجماوات ، تلك الآلام التى تفض على الفهم ، هى ما يروعه ويوقظ في روحه كل مشاعر الرقة ، كما قال .  
ان صيحة الذئب في الكمين هى صيحته . وان عبقريته التى سمت كثيرا على عبقرية الرجل العادى لترتبط بالاحساسات الجسدية لحياة ادنى في سلم التطور من حياة الانسان .

لقصد كتب ولعله كان في ابخرة اثيرة - عن امرأة فلاحه عجوز بخيلة قررت أن تلقى بكلبها في حفرة .  
وكان كلبا لايقارف حتى النباح ، تخلصا من أداء ثمانية فرنكات ضريبة للحكومة على الكلب . واتصلت أول الأمر بأحد العمال لينفذ لها ما أرادت اكنه طلب خمسة بنسات أجرا له على ذلك، فبدأ لها هذا مبلغا قد بولغ في تقديره كثيرا ، وعرض خادم زراعى للجيران ان ينجز ذلك لقاء بنسين ونصف بنس ولكن هذا لم يزل أجرا باهظا ولذا ذهبت السيدة بنفسها الى الحفرة وألقت بالكلب فيها من عنقه ، فسمعت أول الأمر صوتا لوقوعه في الأرض . وكان صوتا كئيبا تلتسه صيحة حادة ، صيحة ولولة تمزق القلوب ، يبعثها حيوان جريح .  
وأعقبت ذلك صيحات ألم صغيرة كثيرة متتابعة ، ثم ضراعات يائسة ، ضراعات كلب رفع رأسه تجاه فوهة الحفرة . وفي هذه الليلة رأت الكلب فيما يرى النائم فقررت في الصباح اخراج الكلب من الحفرة . فذهبت الى رجل يعمل في حفر الصلصال وطلبت مساعدته لكنه

طلب أربعة فرنكات أجرا على اخراج الكلب فذهلت المرأة وقالت في صيحة الغضب (أربعة فرنكات.. ياله من أجر باهظ) انها تستطيع اذن أن تبيع ضميرها بأن تلقى بكسرة من الخبز في الحفرة ، ولكن في هذه الأثناء كان قد ألقى في الحفرة مع ( بيرو ) كلب أكبر منه . فاذا ألقت السيدة بكسرة الخبز استطاعت ان تستبين في وضوح صوت العراك الرهيب ، ثم صيحات «بيرو» الشاكية ، فقد عضه الكلب الكبير ، وتقنع السيدة بالتخصيص قائلة: «انها لك يا بيرو» وكان من الواضح ان «بيرو» لم يصب شيئا . ثم قالت في نبرة من يبرر سلوكه الذاتي « انى لا أستطيع اطعام جميع الكلاب التى ألقيت في الحفرة» .

وفي ضيقها بفكرة اطعام كل هاتيك الكلاب الحية على نفقتها انصرفت . بل لقد اخذت معها بقية الخبز لتأكله وهى قافلة .

وكانت العبرات تصعد الى عينيه حين يتحدث عن العذاب الصامت الذى يلقاه أشقاء روحه . وقد نظم انشودة رقيقة جميلة في رثاء جثمان حمار قد استلقى للانحلال وناشه الذباب على بعد خطوات ثلاث من الحقول الخضراء التى كان بها يهيم عبثا ، طوال حياة ملئت بالسكدح من أجل صاحبه .

وماذا عن الانسان ذلك الحيوان الأصفر؟ ان القدر يسيطر عليه بنفس اثو حشية التى يسيطر بها الانسان على الحمير والكلاب فيما يقول .

واستطاع بضربات قليلة من ضربات قلمه اللدن ان يعيد الجهاد الى كل جهاد الفلاحين الثرمنديين في غير غناء . على ان اتصاله بهذه الأرواح المسكينة لم يكن اتصال عقل بعقل، بل اتصال حس بحس ، ولمس بلمس،



وشم بشم ، فقد كانت حاسة الشم عنده حادة كأنها حاسة حيوانات الحقول . كان يشم عواطفهم وطرائقهم في العيش وغرائزهم بل وافكارهم ( وكل الحياة في كتاباته تبدو كأنها مجموعة من الروائح ) ومعظمها روائح كريهة .

فلقد كان يتصور الحياة قبيحة ( فهو يركز التفاته في نقطة صغيرة من الحياة البصرية ، وهي عادة نقطة كئيبية رثة غير شائقة ، يأخذ هذا الجزء الصغير فيضفطه الى ان يعبس او يدمى ) .

ولكن اتعس قصصه يومض في روايتها بريق الشهوة ، انه يحب ذلك الاتصال الكهربى للحم البشرى . فهو (رينوار(١)) القلم . ولم يكن يرى فكاهة دقيقة مستخفية في قصص الحياة التى كان عليه ان يرويها ، سواء قصص الفلاحين او الأمراء ، ولكنه بلغ أدق الحيل الفنية في

وصفه لمسلة الألم والغباء والبذاءة ، وكانت قصصه القصيرة احياء لقصص لافونتين الخرافية وقصص بوكاشيو الفكهة وقد كانت ( القصة الاباحية ) دائما تستثير الشرارة السريعة للعقل اللاتينى .

وكان موباسان أستاذ الأقصوصة ، لكن طريقته في سردها هي طريقة سرد الملاحم . ولقد كتب كثيرا من القصص كانت في الواقع أقاصيص وكانت كل أقاصيصه قصصا طويلة . وأشخاصه جميعا لاينعمون براحة دينية أو روحية . ومع ذلك فهو شاعر متنكر في زى ساخر قاسى القواد . فتشاؤمه ودقته العلمية واسلوبه المشرق البسيط الذى ينحو فيه منحى الأدباء الأقدمين

---

(١) رسام فرنسى من أصحاب مذهب التأثير . (المترجم)

انما هو مستعار من مظاهر جيل الشبان الذين يعيشون حوله ، وكان موباسان يشعر كما يشعر بقية جيله ان الله قد خلقه لكنه يرفض ساخرا ان يؤمن بهذه الأبوة .

ولم يكن لديه مبدأ فلسفى يعيش عليه ( ان هناك من الحقائق ما يساوى الناس عدا . فكل منا يكون لنفسه صورة خادعة للعالم . وهو خداع شعري أو عاطفى أو بهيج أو مقبض أو قدر أو كئيب حسبما تكون طبيعته . . كخداع الجمال وهو تقليد انسانى . . وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة . . وخداع النبذالة الذى يستهوى الكثيرين . وكبار الفنانين هم أولئك الذين يسعهم حمل الانسانية على قبول انخداعاتهم الخاصة) .

وكان مجتمع فوبورج سانت اونورى الذى يستضيفه قد ضاق به ، فانه جلف ريفى شهوانى رغم كل شهرته وتأنقه . وعيناه لا تخصصان شيئا بنظراتهما انهما ليستا عينى رجل طبيعى . فانهما عينان لا تنبئان بروح .

وهذا جى دى موباسان الذى أصبح استاذ الضحك بلا مسرة ينظر فى المراة الى عينيه فيتبلبل هو أيضا . وكان وجهه يزداد نحولا كأنما العينان تأكلان اللحم بمقتضى قانون مستمد من طبيعتهما . وكان يحلق ذقنه ذات صباح ، فأتى ضباب بينه وبين المراة ، فوضع يده على رأسه المصدع ، وأخذ يدرك السبب فى عمق بصره بذرات الأشياء ؟

لم يحدس ذلك أحد ؟ ان السبب هو ان عقله يتحلل تدريجاً الى ذرات الأشياء . فكل فكرة من أفكاره كانت تذوب فى قطرات من الادراك ، وكل ذرة من أفكاره ترى كل ذرة زميلة فى صورة من اللمعان المعافى قبل الانحلال الأخير .

وكان يتسلى سلم الفن ، من عبقرية الى عبقرية  
أعظم ، الى الطفولة ، والى الانسان البدائي وما قبله .  
وكان يهبط سلم التطور نازلا الى انسان ما قبل التاريخ  
ثم نصف الانسان .. وما دون ذلك .

ولم يكن يفهم لماذا يموت بمرض تناسلى أصابه في  
لحظة غامضة مجهولة أثناء مغامرة مع خيال . لم يفهم  
ذلك وأفزعته فكرة الموت . انى أومن بأن كل انسان  
يموت يطويه العدم قطعا . ان الانسان اذا مزح مع الحياة  
مرة سلكه الناس في عداد المازحين الماجنين أبد الدهر .  
ان هؤلاء الملايين من قراء كتبه لم يدركوا ان ما يظهر  
في قصصه من أوهام وأشباح ، انما يرجع الى ساعات  
سرية من حياته الخاصة .

لقد طمر نفسه بكتب الطب ، وقابل الأطباء في كل  
مكان ، يسألهم عن الأمراض ، فاستنتج العقلاء انه يجمع  
معلومات يفيد منها في كتاب جديد ، فى سخرية بالأطباء ،  
ودراسة للشذوذ . فلما قال لأضيافه فى هدوء ساعة  
العشاء ( انى مهتم بالجنون ، سأصف العملية التى  
ينحدر فيها رجل الى الجنون تدريجا . ترى هل وعوا  
ما يقول ؟ وهل درت عشيقاته انه انما كان يختلف اليهن  
لأنه يخشى النوم وحيدا ؟ لقد كان مصابا بداء الكشف  
والتفرج على ذاته ، وكان أحيانا يرى نفسه فى وضوح  
كأنه ينظر فى المرآة . ودخل حجراته بعد الظهر فى أحد  
الأيام فوجد نفسه جالسا على مقعد بقرا كتابا كان قد  
نحاه جانبا حين برح الغرفة منذ لحظة . وكتب قصة  
( لاهورلا ) عن رجل يتردد عليه طيفه .

وكان مرة يكتب على منضدة فجلس طيفه قبالة فى  
سكون وأخذ يملأ عليه مايكتب كلمة كلمة ، فشحب



وجهه وصرخ، وحرك يده حركات يائسة ليطرد الطيف.  
وكانت قشعريرة عوالم الموتى تسرى في دمه . وهو الآن  
يخشى قدوم الشتاء أكثر مما كان يفعل في أى وقت  
مضى . فيجلس مرتعشا الى جانب النار وحين يكون  
الجو دافئا كان يوقد النار في جميع الغرف .

واشترى قارب نزهة ، وأبحرت شمس البحر المتوسط،  
وجال في رمال أفريقيا . لكنه في الحر كما في البرد ،  
كان يكتب ملاحظاته وبدنه يقشعر . كان يفكر في الذباب  
الذى يعيش أياما قليلة ، والناس الذين يحيون أعواما  
قليلة والعوالم التى تعيش قرونا قليلة . فما هو  
الفرق بين الدودة والكون ؟ فرق بضعة أيام لا أكثر .  
(انى ارى الموت الآن قد اقترب منى بحيث صرت بحاجة  
الى مد ذراعى الأذفعه عنى . انى أراه فى كل مكان وان  
الحشرات التى هشت فى الطريق ، وأوراق الشجر  
المتساقطة ، والشعرات الشيباء فى رأس صديق لتمزق  
قلبي كل ممزق وتصيح بى (تدبر) انها لتفسد على كل  
ما أفعل وأرى وأطعم وأشرب وأحب - ضوء القمر  
اللامع ومشرق الشمس ومنفسح المحيط ، والأنهار  
النبيلة ، ونسيم أمسيات الصيف الذى يطيب نفسه).

وهو الآن يصفى بحاسة سابعة فتوافيه مع أنسام  
البحر المتوسط أنباء مزعجة فان القدر على حين بفتة  
أصاب أخاه الأصغر هارفى القوى البنية الجاد البعيد  
عن الأوهام بضربة قاضية فى عقله . كما تضرب الشمس  
مستحما نائما .

فلما اصطحبه اقاربه الى مصحة العقل أشار الى  
( جى ) صارخا ( انك انت المجنون انى أقول لك انك  
مجنون العائلة) وسرعان ماكان هارفى مستلقيا على فراش

الموت هادئاً غير مكترث ، ولكنه بذل جهداً أخيراً بأن نادى أخاه ، كما كان من عادته أن يفعل حين كانا صبيين : ( تعال نلعب في الحديقة يا جى ) وما كاد جى يجفف دمه حتى كان أخوه قد فارق الحياة .

والآن شاءت سخرية الحياة الحزينة أن تكون هذه الفترة هي فترة خلقه الأدبى الأعظم ، وكأنما قد أخطأ الطريق بفتة فدلف الى حظيرة آلهة لا تراها العين . ذلك بأن السوم القاتلة التي تجرى في دمه كانت تستخرج منه أينع أزهار عبقريته قبل أن تحطمه . فقد سطر قلمه قصصاً عن المناطق الاستوائية الهادئة المتوهجة ، وعن الحب الانسانى الجميل وعن رحلات في البحر المتوسط الذي كانت أمواجه تذوب في ضوء القمر المبدع فتغدو نجوماً وكواكب .

ونما إله ينمو جماله ، فمناضد المكتبة والمقاعد والمصاييح صارت حيوانات تسعى دخولا الى الفسفرة وانصرافاً عنها ، ونزولا على الدرج وسيراً في الطريق أن ملايين وبلايين الجراثيم تسرى في دمه ، كأنها في استعراض . فإذا وضع كعبه على الأرض قفز الى أعلى في الحال ، وكان خادمه يسير وراءه في بطء خلال الحقول ذات مرة ، فرأيا صليبا عليه صورة المسيح فقال ( أى فرانسوا لقد كانت سنة ثلاثا وثلاثين حين صلب . وأنا الآن أقارب الواحدة والأربعين ) .

لقد صار ( الرسام الأكبر للعبوس البشرى ) . . وهو يرسم وليس به حب ولا كراهة ولا غضب ولا عطف ، فهو يعرض علينا كل الأرواح القريبة العجيبة وكل منكودى الطالع عرضاً واضحاً بحيث نراهم بأعيننا نحن ، فنجدهم أحق من في الحقيقة نفسها . أنه يبعث الى

الحياة دون أن يصدر حكما . . وانه ليعدل الطبيعة  
في حياته وعدم أكثرائه . وحدث بعد ساعات قليلة على  
ليلة رأس السنة أن وجه موباسان غداره الى رأسه  
وشد زنادها ، فلما وجدها خاوية شق حلقه بموسى  
ووقف يحملق في ابتسامة غير آبهة . فاذا هرع خادمه  
الى الغرفة صائحا قال له في هدوء (نقد رأيت ما فعلت  
بنفسى يافرانسوا . لقد شققت حلقى ابها مسألة جنون  
مطبق) أن الرجل الطبيعى انما قد قام بتجربة نهائية  
على الحيوان البشرى ، وهو الآن على استعداد للتخلى  
عن دروسه، لقد ضمد الأطباء جراحه وأوقفوا تدفق الدم .

فلما أقبل الصباح كأنه كلب الصيد يعدو في السماء ،  
اقتادوه الى بحره الحبيب لعل منظر قاربه الصديق  
الجميل (بيل آمى) يرده الى صوابه . فأطال النظر الى  
القارب بعض الوقت ، وتحركت شفاته كأنه الطفل الذى  
لم يتعلم الكلام بعد . فلم يقل شيئا ، ثم انصرف عنه .  
ان شيئا مما حوله لم يعد يعنيه على الإطلاق .

انه ليطفو فى دعة مع الحشائش والصفصاف على  
صفحة ذاك القدير الرهيب الذى لا يزعجه مد ولا جزر .



## إميل زولا

( ١٨٤٠ - ١٩٠٢ )

- ١ -

في عام ١٨٧٤ كان أربعة من الكتاب يجتمعون للعشاء في قهوة ( ريش ) بباريس مرة في الشهر، وكان هؤلاء الأربعة هم : زولا ، وفلوبير ، وترجنيف ، ودوديه ، وكان هذا الاجتماع الشهري - أو عشاء الكتاب المفضين كما كان يدعى - قد صار موسما فتريا لتبادل الأفكار العظيمة ، والحديث الشهى ، والطعام الأشهى .

يكتب زولا في ذلك « كنا جميعا من أهل البطنة ، أما أنا فكنت بحاجة الى البطنة . اذ كان على أن أملأ معدة قد طال عليها الخواء » . وكانوا يجلسون الى المائدة في السابعة ، ويفادرون المطعم في الثانية عشرة ، لا ليذهبوا الى منازلهم . فعليهم أولا أن يهيموا في الطرقات حتى الساعة الثانية ، أو الثالثة أو الرابعة صباحا يتذاكرون خططهم ، ويتحدثون عن قصصهم التالية ، ويمزقون العالم ليعيدوا تأليفه كما تهوى قلوبهم .

وينصرف ترجنيف أول منصرف ، ويليه دوديه ثم يسير زولا ليصحب الأب فلوبير الى منزل الأخير في شارع موريلو ، فاذا بلغا الباب قبل فلوبير زولا من كلا خديه ، واقترق الصاحبان بعد اذ يقول الأستاذ كلمة لحواريه « كل شيء قد قيل أمامنا يا بني ، ولم يبق لنا

الا ان نردد ما قيل . وكل ما علينا ان نقوله في الفاظ  
أجمل .

وعاد زولا لا ليردد ما قيل في الفاظ أجمل ، بل ليقول  
أشياء جديدة في الفاظ قدر لها ان تتجاوب في كل بقاع  
العالم .

## - ٢ -

وكلمة (زولا) معناها كتلة من الأرض ، وكان هذا  
الاسم يصدق على اميل ، فهو ابن أمنا الأرض ، يحب  
كل مخلوق عادي خرج من صميمها .

وكان انسانا تجرى في عروقه دماء مختلطة . . تحوى  
قليلًا من كل ماهو طيب ، فجسده اغريقية ، وأمه  
فرنسية ، وأبوه ايطالى .

كان فرانسيسكو زولا مهندسًا مدنيًا لديه دائما الأفكار  
الصالحة ، يؤيدها رجال غير صالحين . وقد تمكن آخر  
الأمر من استشراف النجاح حين عهد اليه حكام اكس  
بحفر قناة تجلب الماء من الجبال الى المدينة ، لكنه لم  
يستطع قط أن يجاوز الاستشراف ، ومات عام ١٨٤٧  
قبل أن يبدأ العمل في حفر القناة تاركًا السيدة زولا  
بأنها اميل ، وكان في السابعة ، وليس لديها شيء تعوله  
به غير حلم خائب .

فأمضى خمس سنوات في تعلم متقطع ، يتخللها كثير  
من رحلات الاسترخاء الى شاطئ التورز ثم بعث بالافاق  
الدميم الصغير الى تعليم صحيح في كلية اكس .

وكان مقامه بالكلية عذابًا طويلًا متصلًا فهو متحفظ

يصعب عليه كسب الأصدقاء وبه لثقة تربكه .. فإذا  
سأله رفاق الدرس ما اسمه تلعثم وهو يجيب (ثولا)  
وأصبح (ثولا) اسما يطلق عليه تهكما ، وسوط عذاب  
يصب على ذلك المتلعثم المرتبك الحساس .

لكنه لم يتلق عقابه مستسلما فهو محارب مكافح .  
واذا وقف في وجه الدهماء كال لهم صاعا بصاع . ولقد  
هاجمه ذات صباح تلاميذ ملأوا فناء المدرسة فوقف  
مقهورا يلهث ، يحاول بأقصى الجهد أن يوقف دمه .  
فذهب اليه صبي كان قد بلغ الفناء لتوه وقال له :  
يوسفنى ما حدث .

حسنا : انى استطيع الذود عن نفسى .  
فمد اليه ذلك القادم الجديد يده وقال فى دفعة :  
اريد لاتخذ منك صديقا .

— وكذلك اريد .

هذا ما قال زولا وهو يصافح اليد التى امتدت اليه .  
وبالمناسبة ما اسمك ؟ ..

« سيزان . بول سيزان » . وهكذا بدأت الصحبة  
التي استمرت سنوات طويلة بين ثأثرين من اولى العزم  
يواجهان العالم .

— ٣ —

كان زولا الصغير ( وهو فى كلية اكس ) كاتباً مجيداً .  
فهو فى عامه الثالث عشر يكتب قصة تمثيلية ذات ثلاثة  
فصول — ولكنه تلميذ متخلف — فاذا ترك كلية اكس الى

— ١٢١ —



مدرسة المعلمين العليا بباريس لم يكن قد تحسنت حاله فهو ينقطع عن الدراسة ، ويرفض أن يردد ما حفظ متى طلب منه ذلك ، ويقف وقته كله على قرض الشعر ومطالعة رابليه ، ومنتانى ، وهيجو ، وموسيه ، ونال فى الامتحان النهائى صفرا فى الأدب .

وجاء رسوبه ضربة أليمة لأمه فهى قد نظفت أرض المنازل وأزالت أقدارها وغسلت ملابس الناس لتنفق عليه فى تعليمه بالكلية ، لقد أرادت أن تجعل منه مهندسا كأبيه ، والآن تتحطم آمالها وتتهشم فان القدر يسوق اميل الى أن يكون من الكتبة ، أو يسوقه لا قدر الله الى حياة الأديب الجذبة . وكان اميل نفسه يائسا ، فقد كتب الى أحد أصدقائه « فى الأسبوع الماضى وقعت فى برائن حزن حزين ، فلقد بلغت العشرين دون أن اتعلم مهنة ما ، فانى حتى الآن لازلت أهيم فى الأحلام ، وأسير على رمال واهية ، ومن يدرى متى أقع ؟ » .

وشاء حسن الحظ أن ينقذه من الوقوع الفجائى صديق قديم لوالده ، وكان يدعى لبوت . فقد عينه كاتبا فى مرفأ نابليون . وهو عمل يكاد يفى بغذاء جسمه لكنه لايقدم شيئا لغذاء روحه . لم يكن فى المرفأ شئ من المرح « فظلت أقيم أشهرا فى هذه الحظيرة اللعينة . والله انى لأشعر بأثر ذلك فى ظهرى ورجلى وأطرافى الأخرى جميعا . وانى أجد لمكتبى رائحة كريهة . انى لأتقزز - ولسوف أقطع ما بينى وبين ذلك المخزن الخبيث » .

وقطع مابينهما بعد أشهر قليلة ، ثم انزوى عامين فى حمأة الشقاء والعوز والجوع والمرارة والأسمال واليأس ، والأحلام ورسم الخطط لايجاد عهد للإنسانية جديد ،

وخلق انجيل جديد يضيق مسافة الخلف ما بين السماء والأرض.. ليته يستطيع صنع هذا الانجيل . ليته يستطيع تسكين هذا الألم المبرح في معذته !..

ثم يلتئم شمله بسيزان ، وكان قد تبعه الى باريس ويسكنان بعض الغرف معا ويحلّمان معا ، ويقتلهمما الجوع معا . النبي الجديد للبيان ، والنبي الجديد للتصوير ، في عصر لا يحفل فيه أحد بالأنبياء ، فكان زولا يكتب القصائد وسيزان يلون الصور ، ولا يجد أيهما جمهورا يقدر بضاعته ، ولو أردنا الحق لقلنا ان أحدا منهما لم يكن يستحق التفات الجمهور اليه حتى ذلك الوقت . فان لهيب الإلهام لم يمسس بعد ذلك الوقود الذي صنعه الآلهما .

( لكنى سأكتب حتما ذلك الأثر العظيم يوما ما .  
والأيام بيننا ) .

وفي هذه الأثناء كان يذوق مزيدا من المرارة ومزيدا من اليأس ، ومزيدا من العوز ، وبلغ الجوع منه مبلغه في شتاء عام ١٨٦١ - ٦٢ فأقام الفخاخ على سقف عليته يتصيد بها العصافير التي جعل يشويها على شمعة ثبتها بطرف قضيب ، وكان يفمى عليه أحيانا من الجوع .

وكانت نجاته في هذه المرة أيضا على يد صديق لأبيه . فعين هذه المرة عاملا للف الكتب وحزمها في دار للنشر بملكها هاشيت وشركاؤه . وظل شهورا عدة يلف الكتب في قسم الشحن البحري ، ويكتب اذا فرغ تعليقات على هذه الكتب ، يتسلى بذلك ويستمتع .

و ذات يوم بغته صاحب الدار وهو يمارس هوايته العابثة . فقرأ التعقيب وقال « قد تكون يازولا متراخيا

فى الشحن ، لكنك فى النسخ أقل سوءا . فلنجربك فى قسم الاعلان » .

وكانت هذه الترقية نعمة ساقها الله الى زولا . لقد وجد آخر الأمر فرصة لكسب عيشه بقلمه .

فاذا شحذ قلمه ، جعل يستعمله مثابرا فى النهار والليل ، فلا يفرغ من عمله الرتيب فى المكتب حتى يذهب الى المنزل — وكان يساكن أمه فيه وقتئذ ، فيصيب عشاء وافرا ثم يجلس الى كتابة غير رتيبة .

وكان قد انصرف عن الشعر الى القصة « لقد كانت ملهمة شعري لا غناء فيها فلاكن ناثرا منذ اليوم » . وأخذ يعرض قصصه القصيرة ، فسعد بأن رأى بعضها منشورا فى الجرائد المحلية . ثم جمع قدرا من هذه القصص وعرضها ، لا على ناشره بل على ناشر آخر أقل منه تزمنا ، هو ( هتزل ولكروا ) .

وكنّا فى أوائل الربيع من عام ١٨٦٤ ، حين نظر اليه (لكروا) من خلف مكتبه . فرأى صبيا بدينا مرتبكا شعره منفوش وأنفه أفطس كأنه يتحدى .

« سيدى ، أتنفضل بقراءة هذه القصص ، ولوقصة واحدة منها فقط . أرجوك أن تقرأ منها أى واحدة شئت . فسترى لتوك أنى صاحب كفاية » .

فطرب (لكروا) لما سمع من تأكيد الصبى ، وإن كان قد سمعه فى نغم بالغ التهيب . فوعده زولا بقراءة المخطوط . وانتظر زولا عدة أسابيع بدت له فى قلقه كأنها بضع سنوات ، ثم قبل الناشر المخطوط .

قال زولا فى بهجة « لقد كانت المعركة قصيرة ، انى



الآن على عتبة الحياة ، فليس على إلا أن أسير قدما  
من هذه النقطة وأن أتابع السير » . وبعد نبأه الذكر ،  
جاء الحب والخيال .

- ٤ -

فقد استأجر زولا شقة في أحد الشوارع قريبا من  
مدرسة الطب على الشاطئ الأيسر لنهر السين ، ورأى  
( الكسندرينامسلى ) ابنة صاحب الحجرات التى  
استأجرها ذات مساء ، وكانت الفتاة سمراء طويلة تأخذ  
بالأبصار ، ذات عينين كأنهما عينا طفل فى صورة إسبانية  
قديمة . كانت هذه الفتاة تبكى وتحاول أن تتجنبه ،  
وعرف زولا أمرها شيئا فشيئا . فهى قد كرس  
نفسها لعاشقها ، وكان طالب طب من الأقاليم ، وقد  
ذهب الحبيب الى بلده وهجرها . فأخذها زولا الى  
منزله واتخذها خلية .

وما لبث أن تلقفها قلبه فاتخذها خلية . وكانت  
معاشرة تساوت فيها رقة الزوج ورقة الزوجة ، ولم  
يكذ يكون بينهما أى تشابه من حيث الجسم ( فزولا  
دميم كأنه الكابوس . والكسندرينا ، حلوة كأنها الحلم )  
ولئن عبد زولا جمال جسمها فقد عبت الكسندرينا  
جمال روحه .

ولسوف تثبت الكسندرينا أيضا - كما سنرى -  
أنها صاحبة روح جميل .

لقد صار زولا صاحب بيت مستقر وشهرة تنمو  
وتكبر فى عمله . وكان معنيا بالأدب الواقعى من طراز  
قصة ( مدام بوفارى ) لفلوير ، وتمثيلات من طراز

هنريت ماريشال لكونتور تلك الدراسات العلمية في الحب ، التي أصابتها عيون نفست الى اعماق أسرار الحياة . فأراد أن يكون كذلك عينا بصيرة تكشف عن أمراض المجتمع كي يعالج جراحه . فكتب عددا من القصص الواقعية ، وهو يفضل أن يسميها بالطبيعية . وقد قرئت القصص على نطاق واسع ، وأهين زولا على نطاق واسع كذلك « لقد سقطت من عين أهل الوقار » .

وظل الجمهور يشتمه ويقرأه ، ويصب في جيبه المال . فقد صار في دوائر المثقفين غير الوقورين ، علما ذائع الشهرة الى حد ما ، حتى لكأنه الأسد كما يقولون ، أو بالأحرى : كأنه الدب ، بوجهه هذا الأشعث وبطنه الضخمة ، وذوقه الخشن غير المصقول .

وكتب سلسلة مقالات في مدح ( سيزان ) وغيره من الفنانين المحدثين المزدريين وأن كان يعترف بأنه لا يحسن تمييز اللون الأسود من اللون الأبيض .

وقد أثار حول آرائه المجنونة عاصفة من الخصومات . ويستمرىء جنونه وشهرته . فكل هذا يعبد له الطريق الى مشروعه الضخم ، وهو تأليف الانجيل الجديد الذي كان يرسم خطته طيلة سنوات عدة ، والذي يرسم صورة الانسانية كاملة غير مزدانة ، كما تتضح من دراسة الأجيال المتعاقبة من أسرة واحدة . وانها ملحمة من ملاحم الاتهام ستكون في الوقت ذاته انجيلا للأمل . وحين يكتب زولا ملحمة الاتهام هذه في عشرة مجلدات . يصبح على حين فجأة تلميذا وناقدا ومعلما لبنى جنسه .

وكان قبل أن يبدأ كتابة كل قصة ، يأخذ في دراسة شاملة كاملة للمشاهد والأشخاص والأماكن واللغة

والآمال والمخاوف والعقائد لتلك الذرات الانسانية التى  
يتركب منها بناء القصة . فكان يقرأ كتباً فى الموضوع  
ويزور الأماكن ويحدث الناس ويرقب تصرفاتهم  
وأصواتهم ولهجتهم الدارجة ، ويثبت ما رأى فكان يجمع  
لكل قصة مذكرات تملأ مجلدات متتابعة ، ثم يأخذ هذه  
الكتلة المستعصية من المعلومات ويعيد قراءتها ويسبكها  
ويصوغها فى ذهنه الى فكرة وخطة ، ويتابع كل شئ فى  
تريث ونظام وصبر . ان الكتابة عبء ثقيل على .

وأخيراً بعد كد يظل عدة أشهر ، وربما عدة سنوات،  
يولد اثر من آثار الأدب .

ولنلق نظرة عجلى على أحد هذه الآثار الفنية  
(لاسوموار) وكانت لها يندلع من كمية من الوقود ضخمة .  
وقد أسهب زولا فى وصف أعداد هذه القصة وكتابتها .  
فهذه القصة صورة لما يلقى الفقراء من الآم ، وانها  
لصورة مخيفة . كذلك يقول زولا فى مذكراته « وهى  
قصة تفصح هى عن مغزاها . وتدعى بطله القصة :  
جرفيز ما كادت وهى امرأة من الشعب . . هى مثل  
من البؤساء الذين تنكرت لهم أمانا الأرض . وعاملتهم  
بما ينتظر المرء من زوج أبيه ، وان جرفيز لم تكد تعدو  
العشرين حين ولدت طفلين (كلود ، واتين) وكلاهما جاء  
من علاقتها غير المشروعة (بلانتير) . فقد ألفت بنفسها  
فى حماية (لنتير) وهى بعد فى سن الثالثة عشرة لتنجو  
من قسوة أبويها . وكان لنتير فى أول أمره رحيماً بها ،  
غير انه الآن يهملها ، فهو يقضى الليل بطوله فى السهر  
خارج المنزل ، ومتى عاد مع الصبح لم يكن يستطيع  
النهوض على قدميه ، وسل عن ذلك حائته فى الحى  
(لاسوموار) وامرأة أخرى هى (اديل) ولا تزال جرفيز



ذات جاذبية وملاحة ، غير ان بها عيبا جسمانيا واحدا هو ظلع يسير اذا مشيت . وكان هذا الظلع يزيد وضوحا حين تجهدها كثرة العمل بوجه خاص ، وانها بهذه الأيام لفي غاية التعب حقا .

وكانت ذات صباح تفسل ملابس الأسرة في مفسل عام . فيهرع ولداها اليها ليخبراها ان لنتير قسهد هجرها وأقبل على (اديل) ومضى بكل ما تملك جرفيز واضيفت الى انباء الأطفال المثيرة ، سخرية من فرجينى اخت ( اديل ) وكانت امرأة قوية البنية جاءت الى المفسل تشفيا بشهود ما أصاب غريمة (اديل) . واذا كانت جرفيز أصفر حجما وأهش قوة ممن تعيرها وتشمت بها، فقد قفزت فوقها وركلتها وعضتها وضربتها حتى توسلت فرجينى بطلب الرحمة « لكنى لن أغفر لك هذا قط » بذلك غمفت فرجينى وهى تنسل من المفسل .

وظلت جرفيز بعض الوقت تعول نفسها وولديها بأجر ما تفسل من ملابس الناس . وكان من معارفها (كوبو) عامل القصدير ، وهو شاب يعرف قصتها التعسة مع لنتير ، ويطلب اليها (كوبو) ان تكون له خلية . ولكنها ترفض المرة بعد المرة . واخيرا يطلب يدها فتقبل .

وتثور العواصف والاثامات من أسرة كوبو . ويطمئن الزوجان فترة سعيدة شيئا . فان كوبو لعامل مجد ، وجرفيز غسالة ممتازة . ويتمكن الزوجان معا من تهيئة منزل طيب للطفلين ولطفلة ثالثة هى (نانا) التى ولدت بعد زواجهما بأربعة أعوام .

وما هى الا فترة قصيرة اعتكفتها مع (نانا) ثم تعود

الى العمل فى المفسل ، وكانت لا تحلم الا بأن تكون  
صاحبة مفسل ، وان الأمور ليست بالفة السوء آخر  
الأمر ، وخاصة اذا اشتغلت فى جد ، وحافظت على  
أمانتها وتدبر مشروعاتها . لكن مشروعاتها أصيبت  
يوما بصدمة مفاجئة . ذلك بأن زوجها قد هوى من  
سقف يصلحه ، فرفضت ارساله الى المستشفى وأصرت  
على العناية به فى المنزل . فكانت نقاهة طويلة ، خرج  
منها كوبو وقد صار يختلف عن الرجل القديم . فالتسقوط  
لم يهشم جسمه وحده ، بل هشم روحه كذلك . فلم  
يعد طموح ولا خطة ولا أمل . وانما هى عاطفة مسيطرة  
هى الحانة .

وكان القدر يحاور أسرة كوبو ، كما يحاور القط  
الجرذ . فهى تطعم لقمة سائغة من السعادة ثم تخوض  
لجة من الشقاء ، ثم توعده بالسعادة وعدا جديدا كذوبا .  
فهذا رجل كان يحب جرفيز مستخفيا هو (كونجى)  
الحداد ذو اللحية الذهبية ، والقلب الذهبى ، وقد  
ظهر عليها فحملها على ان تقبل منه قرضا مقبداً  
خمسائة من الفرتكات ، وهذا مبلغ يكفيها ان تفتح  
مفسلها وتحقق حلمها .

لكن القدر كان يتربص بها فى الربيع القادم كما يتربص  
النمر . فقد غدت فرجينى اخت (اديل) جارة الأسيرة  
كوبو، وهى لم تنس قط تلك الوكزة من جرفيز . فادعت  
صداقة جرفيز وأخبرتها ان لنتير قد عاد الى قواعده  
( لقد هجر اديل . وهو على حبك مقيم ) .

وربعت جرفيز لذلك ، لكن مضت فترة من الزمن  
دون ان يبذل عشيقها السابق جهدا للقائها ، بل لقد  
كان يلتبس صداقة زوجها كوبو . فتسلزم الرجلان

في الحانة ، وأخيرا دعا لنتير نفسه الى مساكنتهم في منزلهم .

وكان من اثر الرجلين المنحليين في جرفيز ، انها اخذت في الانحلال البطيء . كان عليها ان تعولهما جميعا كما تعول أطفالها . فجاهدت زمنا لتنهض بعبيثها الباهظ.. ثم ناءت به . فتشاجرت مع زوجها وأهملت عملها . والتمست السلاوى والنسيان بين ذراعى لنتير . ثم كانت الصدمة الأخيرة اذ فقدت لنتير ومفسلها وورثتهما جميعا فرجيني .

وهي الآن مع زوجها غارقة في دوامة الحانة ، فينتكس كوبو من سكرة الى سكرة حتى يزهق روحه كابوس الكحول . وأما (نانا) فهي الآن فتاة كاملة النضج ، قد هجرت المنزل لتفقد من رائدات الشوارع ، وتحاول جرفيز أيضا أن ترتاد الشوارع . ولكن من ذا يطلبها.. جوع وشراب ويأس ، ثم اشراف على الهوة .

ويبذل الحداد (كونجى) محاولة أخيرة لانقاذها ، ولكن سبق السيف العذل ، فان حانة العالم التى تسكر الفقراء بجام اليأس المرير... قد تقاضت أتاوتها ..

- ٥ -

ومن مفارقات القدر ان القصص التى كتبها زولا عن الفقراء قد جعلته غاية فى الثراء وفى السمنة والاكتئاب. فأنت مهما تعمل ، فان الحياة آخذة بخناقك . فحين الفقر تكاد تموت من الجوع ، وحين الفنى تكاد تموت من البطنة . وكان زولا عصبى المزاج منسند طفولته ، فاعتقد انه مصاب بكل مرض معروف . وهذا يرجع



فيه قال الى ما اصابه في باكورة حياته من حرمان ،  
وما تلا ذلك من اكتظاظ . والواقع ان له صحة كصحة  
الحصان . وانما الذى يقض مضجعه في حقيقة الأمر  
ليس ضعف صحته بل حرمانه الولد فهو كان يحس  
انه نصف انسان فحسب . لماذا كتبت عليه زوجة  
لاستطيع ان تنهض بوظيفة الأمومة ؟ ان هنا بين خدمه  
امراة أخرى (جيان روزيرو) ، هى وصيفته الخاصة ،  
وهى طويلة ، صحيحة الجسم عسلية العينين ، حسنة  
الهيئة ، غضة ندية . فما أطيبها من أم لبنية .

ولم لا ؟ فانها لا تكاد تبلغ العشرين . أما هو فشيخ  
في الخمسين أشيب مستدير الجسم كأنه رأس الخنزير .  
لكنه اذا لزم نظاما معيناً في الطعام استطاع ان ينقص  
عمره ثلاثين عاماً ، ومن وزنه ثلاثين رطلاً ، أما شعره  
الأشيب فانما يزيده جلالة في عيني جيان .

فيلزم في طعامه التحديد الصارم أشهراً عدة . .  
فيمتنع عن الدهنيات والفتائر والسوائل حين الوجبات .  
وعاد الشيخ الى شبابه . وكأنه فوست قد تراءى في  
شكله ، واتخذ لجيان شقة خاصة وما كان ابلغ سروره  
بأن ولد له طفلان .

ولكن أين السرور من زوجته الكسندرينا . انها تحتج  
وتثور وتهدد بالانفصال . وأخيراً تستسلم لما قسم لها ،  
فتصير المرأة الأولى في بيته . والمرأة الثانية في قلبه .  
بل لقد تجاوزت ذلك ، واذا كان المثل الفرنسى يقول :  
( النبالة تفرض التزاماتها ) فان الأمر كان عكس ذلك  
في أمر الكسندرينا فان ( الالتزامات قد فرضت النبالة )  
فهى في تسامحها الذى أنبته حزنها تتصل بأم أبناء  
زوجها ، وتسجل الطفلين ولدين شرعيين لزولا ، وتعنى

بهما شخصيا مدى حياتها .

وشاء زولا أن يظهر عرفانه بجميل الكسندرينا ، فأهدى إليها كتابه التالى ( الدكتور باسكال ) وكتب عليه « الى زوجتى العزيزة ، أهدى هذا الكتاب الذى هو لباب تواليفى وخاتمتها » . ولكنه يكتب على احدى نسخ الكتاب اهداء مختلفا ( اهداء الى حبيبتي جيان التى أهدتنى زهرة شبابها الرائعة ، وابتلى منحنتى دنيس وجاكوب . ولدى العزيزين اللذين ألفت لهما هذا الكتاب ، حتى يعرفا مبالغ عبادتى لأمهما ) . وظل زولا حتى آخر يوم من حياته محافظا على علاقة هاتين : اخلاصه ( لزوجتى العزيزة ) وعبادته ( لحبيبتي جيان ) .

- ٦ -

فاذا اتم زولا قصصه العشر ، ( ملحمة الكفاح فى سبيل الحق ) لم يبق عليه الا الراحة تحت اكاليل الفار . لكن جهاده الحق قد بدأ من هناك وكان الجهاد يتصل بمحاكمة الكابتن دريفوس .

ولم يكن زولا يهتم بمحاكمة دريفوس ( فما هو غير يهودى آخر متهم بخيانة الوطن ) ولم يكن زولا يأبه لليهود قط . بل كان يبغضهم فى شبابه أشد البغض . ولكن لا تتقدم المحاكمة حتى يحس فى اجراءاتها معنى عجيبا . فهو قد مر على دقة الملاحظة حين يعد قصصه . فخامرته الشك فى ان تكون التهم الموجهة الى دريفوس ملفقة على رجل شريف فشرع فى درس القضية فاستيقن ما كان يرتاب فيه . لقد ارتكب الظلم الشنيع فى بلاده ويقتضيه واجبه المقدس بوصفه مواطنا يحب بلاده ان

- ١٢٢ -

يمحو الظلم . فالذى يحاكم أمام العالم ليس دريفوس بل فرنسا . فوهب زولا نفسه قلبا وروحا لتطهير اسم دريفوس لكي يظهر اسم فرنسا .

وكان دريفوس يذوى ويضمحل في السجن الانفرادى على جزيرة الشيطان ( انى برىء ) كذلك كان يصيح ويكرر صياحه . وهو يؤمن في يأسه انه لم يسمع صوته غير الرياح والأمواج .

ولكن زولا قد سمعه وأجبر العالم بأسره على ان يسمعه ، فكتب رسالة ونشرها وجعل عنوانها ( انى اتهم ) وحلل القضية كلها بعناية في هذه الرسالة ، ولم يقف في هذه الرسالة عند اثبات براءة دريفوس ولكنه وجه اتهامه الى الرجال المجرمين والنظم المجرمة « لم يبدأ هذا الأمر الا اليوم . فقد انقسم الناس الآن الى معسكرين يضم أحدهما المجرمين الذين لا يحبون ان يلقي على الموضوع أى ضوء . ويضم الجانب الآخر محبى العدالة الذين يضحون بأرواحهم في سبيلها . وليس لدى غير عاطفة واحدة هى حبى للنور والوضوح . وليس احتجاجى الحار الملهب غير صرخة من صرخات الروح . فليجرؤ الجناة على الدفع بى الى المحاكم فهذا من شأنه ان يعجل بتفجير قوة الحق والعدل » .

وقد حدث الانفجار فعلا ، وان لم يكن انفجار حق او عدل ، بل كان انفجار بغض لزولا وعنّف به « فليسقط زولا ، يسقط الخائن ، اشتراه اليهود » وهو جم منزله وقذف بيته بالحجارة ، ومرق بعضها من النوافذ مروق السهم ومنعت كتبه من التداول ، وأحرقت صورته وألقى بها فى السنين ، ودعت احدى صحف باريس ( صحيفة القول الحر ) الى قتل زولا ونهب بيته .



وأخيرا بلغ الهيساج غايته فقبض على زولا بتهمة القذف ، وحدثت مهزلة طويلة قيل انها محاكمة . فكان محامى زولا كلما سأل شاهدا ان يذكر من الحقائق ما ينير جوانب القضية ، قاطعه القاضي بقوله ( ارفض توجيه هذا السؤال ) وألقى زولا فى ختام المحاكمة دفاعا ذلعا طلب فيه العدالة لا لنفسه بل لدريفوس . ( انه برىء . أقسم على ذلك بحياتى وشرفى فى هذه الساعة الرهيبة وأمام هذه المحكمة التى تمثل العدالة الانسانية وأمام فرنسا وأمام العالم أجمع أقسم ان دريفوس برىء . وبحق الأربعين عاما التى قضيتها فى الكد والعمل . وبحق الصفة التى قد يخولنى اياها هذا الجهاد أقسم على براءة دريفوس وبكل ما كسبت وبالسمة التى أصبت وبمؤلفاتى التى أعانت على نشر الثقافة الفرنسية أقسم ان دريفوس برىء فليمزق كل هذا شر ممزق ولتمت تواليفى جميعا ان لم يكن دريفوس بريئا . وانه لبرىء . )

أما عن مصير زولا نفسه ( فلن أتكلم . . وقد يصدر على حكم هنا ولكنى سأنتصر . فان فرنسا ستحمى لى يوما ما انى عاوت على انقاذ شرفها ) .

ووجد المحلفون انه قد ارتكب جريمة قذف ( فى حق متهمى دريفوس وساجنيه ) فحكم عليه بفرامة قدرها ٣٠٠٠٠ فرنك ، فكلفه كفاحه فى سبيل احقاق الحق عمله وصحته وسمعته وما ادخره طول حياته وكسبه من أصدقاء وعاد الى سابق سيرته منذ أربعين عاما مزدورى محروما وحيدا .

لكنه اقام على كفاحه ، ونجح آخر الامر فى ايقاظ ضمير فرنسا ، فأعيدت محاكمة دريفوس ، ووضحت براءته ، وأطلق سراحه . لقد انتصر زولا وعاش حتى

شهد اليوم الذى تنبأ به اثناء محاكمته ، والذى تحمد له بلاده فيه انه اعان على انتقاذ شرفها .

## - ٧ -

لقد انتهى دوره على مسرح الحياة رآين للقدر ان يؤذن بإسدال الستار . وقد أسدل على نحو مسرحى يناسب بطلا من طراز زولا . كنا فى الثلاثين من سبتمبر سنة ١٩٠٢ وكان سيزان أقدم أصدقاء زولا قد دخل لتوه مرسمه فى اكس وأخذ يعد لوحة الدهان استعدادا لعمل اليوم ، فيهرع اليه بالاستوديو خادمه وقد تقطعت انفاسه تقطعا ( مسيو سيزان مسيو سيزان لقد مات زولا ) .

فيخفق قلب سيزان خفقة : كيف حدث ذلك ؟ ..

— حدث حادث يامسيوسيزان ذهب زولا الى مخدعه فى الليلة الماضية وقد ترك النار موقدة فانتشرت النار . الفاز .. الاختناق ..

لقد أطل زولا السهر ليلة موته . ووجدوا على مكتبه فى الصباح التالى صفحة مخطوطة لم تتم . بها عبارة مكتوبة على عجل هى جماع فلسفته فى الحياة .

( ان نعيد بالحق خلق انسانية اسمى واسعد ) .

# صمويل لانجهورن كلمنس

(مارك توين)  
( ١٨٣٥ - ١٩١٠ )

- ١ -

لم ينل مارك توين بعد حظه الكامل من الاعتراف، فلقد توج عمله بكل ألوان التكريم عدا واحدا ، هو الفهم الواعى . فسمحنا لسمعته ان تركز على عمله الذى يأتى فى المرحلة الثانية من الجودة . فنحن نعجب به بوصفه أعظم أصحاب الفكاهة الأمريكيين ، ونتجاهله بوصفه من أعمق فلاسفة أمريكا . فاذا ضحكنا من فكاهاته ، نسينا ما ينطوى عليه كثير منها من ايجاع . فلقد ركزنا عنايتنا فى قلنسوته ونواقبسه بحيث لم نر النبى بعد اذ تنكر فى ثوب المهرج .

ولا مرأى فى ان مارك توين كان صاحب دعاية . بيد ان المازحين الذين على شاكلته هم رجال يعلو وجوههم ابتسام ويعمر قلوبهم الألم . فانهم ليضحكون كما قال ذلك المتشائم الفكاهة الآخر فولتير ، تفاديا للانتحار . فلقد تعمقوا النظر فى كنه الاشياء فقلبهم الفجاءة المؤسف ( للجنس البشرى اللعين ) لذا اتخذوا لأنفسهم أقنعة هائلة اخفاء لما يحتجب وراءها من عبرات .

ان من عانى أعظم الألم ، تعلم كيف يضحك ابلغ الضحك . فأصحاب الدعاية وأصحاب التهكم وأصحاب



السخرية القاسية .. اطفال الادب المشاكسون ، هم  
الثائرون بالحياة الذين غلبوا على امرهم . فهم يشفرون  
انوفهم بأصابعهم في وجه القدر ، لأنهم في عجزهم يدركون  
انه لم يعد لديهم ايماءة أخرى .

وكان مارك توين من أولئك الثائرين المفلولين على  
امرهم . كان يعتقد ان كل الجهاد البشري مهزلة  
لا تهدف الى شيء « قصة يرويها معتوه مليئة بالضجيج  
والصخب وليس لها من معنى » .

فنحن نحاول ان نتخطف قوس قزح ، فنغرق في  
الحماة . نلتمس الوصول الى القمر فتتهشم عظامنا .  
وان الآلهة لتطرب لمنظر آمالنا العنيدة في وجه هزيمتنا  
الدائمة . ولكننا ايضا فيما يعتقد مارك توين يمكننا ان  
نطرب اذا خففنا آلام هزيمتنا بمخدر الضحك . فاننا  
نستطيع النظر الى انفسنا نظرة موضوعية بحيث ننع  
بشهود آلامنا .

( تعلم كيف تألم كما يألم ممثل في مسرحية الحياة .  
ولكن تعلم ايضا بوصفك أحد النظارة ان تبسم لملك  
الشخصي ) .

- ٢ -

كان صمويل كلمنس ثمرة زمانه ومكانه . فهو ابن  
الحدود . لذلك واجه الحياة في فكاهة عابسة كما واجهها  
جميع السابقين الى سكنى هذه البقاع . وهذا الطراز  
من الدعابة كما يقول كاتب سيرته . البرت بجلوبين قد  
نما من ظرف متميز ، هو مغالبة الحدود ، وكانت الحرب  
ميثوسا منها بحيث كان اخذها مأخذ الجد معنساها

الهزيمة . وكانت النساء يضحكن اتقاء للبكاء . وكان الرجال يضحكون حين لا يعودون قادرين على السباب . ونبتت من ذلك فكاهة الغرب . وهى أعذب الفكاهات وأبعدها عن التنميق ، ولكن الأسى يكمن من خلفها . ولقد عرف صمويل كليمنس كثيرا من مآسى الحياة وهو لم ينزل طفلا . فلقد تربى فى قرية فى منتصف الغرب من فقراء البيض . فرأى الأرقاء يجادلون ، والرجال يقتلون رميا بالرصاص فى الشوارع ، وكان أبواه يعيشان عيشة الرحل ، عيشة الحرمان خلا من الأمل والحب ، وكانا دائما فى ( الجناح الغربى ) يسافران من شاطئ البحر الى كنتووكى ومن كنتووكى الى تنسى ومن تنسى الى مسورى وفى مسورى ولد لهما صمويل ( فى ٣٠ نوفمبر عام ١٦٣٥ ) .

وكان أبوه رجلا تخلى عنه الناس ، متوعدك المزاج ، فاطر الهمة ، فكان قلما يلعب أطفاله أو يبدى لهم أى حب ، فوجد صمويل ، فى ذلك الصبى الخشن ، الشكس الرث الضئيل ، الضعيف البنية ، العصبى المزاج ، أنه قد وقع تحت رحمة العالم التى لا ترحم وكانت سسنه حينذاك أحد عشر عاما . فأخرج من المدرسة وعمل صبيا لأحد الطابعين . وقد وصفه الطابع بأنه حدث ضخيم الرأس ، متلطح الوجه بالحبر ، ذو قدرة متناهية على الكسل . وقد وقع فى زمرة متسكعى القرية ، وعلم كل جوانب الشذوذ البشرى ، والأسى البشرى . وبعد سن الثانية عشرة ببضع سنين شهد موت أخت له وأخ . وفى عامه الثالث والعشرين شاب رأسه حين مات أحد اخوته محروقا من أثر انفجار باخرة فى الميسيبى . وفى سن الثلاثين بلغ من برمه بالحياة انه « صوب غدارة مليئة الى رأسه لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة على شسـد

الزناد». فقرر ان يعيش وان يترجم أساه ضحكا. بيد ان ما صادفه في الحياة بعدئذ لم يتح له الا فرسا قليلة للضحك وان جاءت به بكثير من اسباب التعظيم فقد مات ابنه الأول بعد ولادته وأصيب ثان بالتهاب رئوى نتيجة لاهمال مارك توين بسبب شرود عقله . فلقد كان يركب مع الطفل ذات صبيح ثلجى وكان متدشرا بأحلامه الشخصية فنسى ان يدثر الطفل على نحو يقيه البرد . ونجا طفل آخر بأعجوبة حين ترك مارك توين عربة الطفل بلا اكتراث عند قمة تل شديد الانحدار .

( ماكان ينبغي ان يعهد الى بهذه المهمة ) كذلك قال حين التقطوا الطفل من بين الأحجار عند قاع التل ، ورأسه ينزف دما : ( لم اكن مؤهلا لأية مسئولية من هذا النوع فهذه مهمة من لديه على الأقل اوليات عقل ، فانى ولاشك سأنسى نفسى حين أبني قلاعا في الهواء ) . وبعد سنوات كثيرة ، عاد من جولة محاضرات ناجحة حول العالم . فعلم ان (سوسى ) اذكى اطفاله قد ماتت اثناء غيابه .

ثم كانت اقتم مأساه جميعا. ففي الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٩ كانت ابنته جين قد أرهقت نفسها طوال اليوم استعدادا لحفلة عيد الميلاد . فأعدت الشجرة ولفت الهدايا بأناقة وكتبت عليها العنوانات . وصار كل شئ معدا للحفلة . وقبلت جين أباهما على عاداتها وآوت الى مخدعها ، وفي الصباح نعت جين الى مارك توين . فلقد أصيبت بنوبة صرعية بينما هى تستحم . ماأندر من نظامنت له شهرة تفوق مارك توين . وما أندر من فاقوه تعاسة . لقد تعلم كيف يضحك فى صخب ، لكن ضحكه كان ينطوى على مرارة .



وكان مارك توين ابنا حقا من ابناء الحدود ، الحدود بين الأمل البشرى واليأس البشرى . فهو حيثما تنقل سواء أكان ربان سفينة في الميسيبى ، أم كاشفا للمناجم في نيفادا ، أم مراسلا في سان فرانسيسكو فهو يزداد معرفة وألفة بالكفاح والهزائم والجهاد المتجدد الذى يقوم به ( اخوته البشر ، شركاؤه فى اللعنة ) وفى كل مكان كان يتشبع بحياة الحدود وفكاهتها . وكانت حياتها صاخبة وفكاهاتها زاخرة . وكان السابقون يحيون على الحدود بين الحقيقة المرة والخيال المسرف . وكانت قصصهم التى خلقت فى سراب صحراء خشنة ، حية طروبيا ، تدور حول أبطال مررة ، ومغامرات تفوق قدرة الانسان . قصصا عن أمثال شمشون من الأمريكين الأسطوريين (كبول بنيان) الذى تصيب عرقه وهو يكدح على سفح الجبل ، فتدفع الى الوادى وكون البحيرة الملحة الكبيرة . وقصصا خرافية عن أمثال (مانشوزن) من الأمريكين كجيم بردجس ، الذى ضل طريقه فى الغابة المتحجرة ، بينما هو يفر من الهنود . والذى تحجر هو نفسه فى وسط الهواء حين هو يقفز عبر خائق ، اذ ان قانون الجاذبية نفسه قد تحجر فى تلك الغابة .

وقصصا مفرقة فى الخيال عن جرادة صغيرة قطع من عجيزتها شريحة لحم ضخمة لتقدم لكل رواد أحد المطاعم . وعن شجرة (لفت) أوغلت جذورها فى باطن الأرض . فاذا شددتها تفجرت بثر ارتوازية فى وجهك وقذفت بك فى الهواء . وعن ابرة دفعت بها فتاة صغيرة فى قدمها مصادفة ، فظهرت بعد جيلين فى رأس حفيدتها . وكان أحب شئ الى اهل الحدود ان يستمعوا الى

السخرية الهازلة المسرفة بأصحاب الملايين الأمريكيسين المستحدثين ، وكان أحد أصحاب الملايين هؤلاء يملك منجما للفضة في نيفادا ، وكان ينام في السرير العلوى بأحد الفنادق وتذهب القصة الى انه كان ينام في السرير السفلى عامل عادى . واستيقظ العامل من نومه في الصباح وهو يعانى آلاما مبرحة في كل أجزاء جسمه ، ولم يستطع أى دواء ابراءه من عذابه حتى ذهب الى حمام تركى . فتصبب العرق من مسامه كومة من مسحوق الفضة تبلغ قيمتها ١٧ دولار و ٩٢ سنت ، وكان قد امتصها من صاحب الملايين الذى كان ينام فى سرير يعلو سريريه .

هذا مثال من القصص الشعبى الخرافى الذى كان يطرب له رواد هذه البقاع فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان هذا القصص جزءا كبيرا من الزاد الأدبى الباكر الذى طعمه مارك توين . ولكن فضلا عن ضحك قوم صاخبين يجيشون بحب الحياة ، كان ثمة حزن الشخصية الوادعة التى تجاهد الموت . فلقد كان مارك توين متشائما ، وكان يقول ( ان الرجل الذى لايتشاءم لايعرف عن الحياة الا اقل القليل ) . أما هو فيعرف عن الحياة أكثر مما يلزم . فهى لم تجاوز فى نظره مباراة بين الآلهة فى كرة القدم . وخير هبة تستطيع الحياة تقديمها لنا هى الموت ( اننى لم أسرف فى حسد أحد الا الموتى ، انى أحسدكم أبدا ) .

وحين ثار أساه ثورته الأولى بعد غرق جين ، أعرب عن إيمانه بأنه ماكان ليرجعها الى الحياة لو استطاع (لم يعد فى الحياة شىء بعد فقدها ، وحياتى أصبحت مريرة ، ولكنى قانع راض . لأنها أصابت اثنى هبة ،

هبة الموت التى تصغر أمامها الهبات وتتضاءل . انى  
مذ بلغت الحلم لم أرد لصديق أطلق سراحه ، أن يعود  
الى سجن الحياة ) .

انه يرى مع الحكيم اليونانى (سواون) انه لاينبغى  
ان نعد أحدا سعيدا حتى يموت . ولسباب الحكمة  
البشرية ، هذا الذى اثمره الشقاء البشرى ، يجد له  
متنفسا دائما فى مؤلفات مارك توين . كتب فى (بودنهد  
ولسن ) يقول « ان من امتدت به الحياة الى ان أدرك  
ماهية الحياة ، يدرك مبلغ الدين الفادح من العرفان  
بالجميل الذى علينا أن نقدمه لآدم صاحب الفضل  
الأول على جنسنا . فلقد جلب الموت الى العالم » .  
ويقول أيضا « يقول الجميع انه ليشق علينا اننا  
مضطرون الى الموت فما أعجبها من شكوى تصدر ممن  
اضطروا الى الحياة » . وفى قصة ( الفريب الفامض )  
يعاق الشيطان على السعادة البشرية بقوله « لا يستطيع  
السعادة انسان عاقل لان الحياة عنده شىء حقيقى ،  
فهو يرى مبلغ مافيها من هول . وانما يستطيع السعادة  
المجانين » .

وكان كل هذا عند مارك توين ، أجل من ان يكون  
موقفا متصنعا . فان كلماته عن الحياة والموت تحمل  
فى ثناياها مذاق الصدق والاخلاص . فلقد صيغت من  
تجاربه الشخصية ، وبرهن على صحة نصيحة هوراس  
للشعراء فى قديم الزمان : « ليس لسكاتب ان يستشير  
بكاء الآخرين ما لم يكن هو شخصا قد بكى » ويقول  
ذلك الأمريكى من ولاية كونكتيكت « ان الألفاظ لاتحقق  
شيئا ولا تبعث لك الحياة فى شىء ، ما لم تكن قد  
عانيت بنفسك ما تحاول الألفاظ وصفه » لقد كان مارك



توين أشبه بوالث ويتمان ، ذلك المفكر الكبير من رجال القرن التاسع عشر ، الذى لم ينل حقه من التقدير . فى انه كان يفقه ما يقول اذ وصف الموت ، الموت المبارك ، بأنه الطبيب الوداع الذى يحررنا من أشد الامراض هولا ، وهو الحياة .

#### - ٤ -

لاتخلو سخرية عظيمة من معنى الرثاء ، وكانت سخرية مارك توين تنبت من رثائه وزرايته . كان يرثى لعجز الضعيف ، ويزدرى تهور القوى . يقول اناتول فرانس : انه يمكن تلخيص التاريخ الكامل للجنس البشرى فى كلمات قليلة ( يولد الناس ، ويتألمون ، ويموتون ) أما مارك توين فكان يود لو عدلت هذه الكلمات فصارت : ( يولد الناس ، ويجبر بعضهم بعضا على الألم ، ويموتون ) فهو على حبه للبشر من حيث هم أفراد يتحرش بهم غيرهم ، يمقتهم من حيث هم قطع من الذئاب يتحرشون بغيرهم .

وحين كان صحفيا شابا نافذ البصر لاذع القلم ، اضطر الى الهرب من (سان فرانسيسكو ) لأنه انتقد غش رجال الأعمال وفساد الساسة . فيمم جهة الشرق ، فزاد بصره نفاذا وقلمه حدة . والشرق ، وبخاصة نيوانجلند ، بفضل غريزته الصنف التالى فى الجودة ، اذا استعرنا العبارة البارة لبرنارد دى فوتو (فالقوم المهذبون) قد عجزوا عن فهم ذلك الفوضى الأحمى الشعر الآتى من الغرب . ولكن الفوضى الأحمى الشعر قد فهم القوم المهذبين . ووجدهم ليسوا مهذبين كل

التهذيب ، سواء في هارتفورد أو بوسطن أو كامبردج أو غيرها .

وكان يعتبر الناس عموما - بما فيهم هو - من أخط الحيوانات . فاذا سئل هل يجرؤ على وضع انسان في منزله الفار . اجاب بكل جد ( كلا . . فهذا ظالم للفار ) .

قال في (بدنهد ولسن) ان الفرق الرئيسى بين الانسان والكلب هو : ( انك اذا التقطت كلبا يموت جوعا فوفرت له اسباب النعمة ، لم يعضك هذا الكلب ) وكانت هذه الفكرة تشغل باله في الشطر الأعظم من سنى حياته .

وكتب قبل موته بأيام قليلة بأسلوبه الفك الحريف (اذا بلغت الجنة فاترك كلبك خارجها ، فدخول الجنة انما يتم على أساس المحسوبية ، ولو كان بالجداره لبقيت انت خارج الباب ولدخل هو) . لقد اعلن مارك توين : ان الانسان حيوان ولكنه ليس وحشا فانه لم يصل بعد الى المستوى الخلقى للوحش . فالوحش يقتل من الجوع ، والانسان يقتل من الحقد . يرى الشيطان فى (الفريب الفامض) صبيا صغيرا كيف يعذب الجلادون مجدفا فى الدين ، وقد تقزز الصبى من المشهد فقال للشيطان (يا له من عمل وحشى) فأجابه الشيطان (كلا! بل هو عمل انسانى) . يقول مارك توين : ( ليس من حيوان يحترم نفسه يقبل العيش مع الادميين لو كان له أن يختار) وفى (قصة حصان) كان حصانان فيلسوفان، الحكيم برش والحكيم مونجرل ، يناقشان وسائل الآلهة ودهاء الناس .

الحكيم برش - لقد رايت كائنات بشرية كثيرة فى زمانى ، لقد خلقوا كما هم ولا مفر لهم من ذلك ، انهم

مجرد وحوش لأن هذا طرازهم . فالوحوش تكون بالغة التوحش اذا كانت من هذا الطراز .

منجزل - من رأى أيها الحكيم برش ، ان الانسان بالغ الغرابة وعويص الفهم . لماذا بعامل العجماوات بقسوة ؟ ( فترة تفكير تستمر لحظات ثم ) حينما نموت أيها الحكيم برش ، هل نذهب الى السماء ونعيش مع الناس ؟

الحكيم برش - أبى لم يكن يظن ذلك . كان يعتقد انه لن يكون علينا العيش مع الناس في الجنة ما لم نستحق ذلك .

- ٥ -

ولم يكن اتهام مارك توين للجنس البشرى اتهاما معنويا مجردا ، فهو من آن الى آخر حتى في أشد كتبه مرحا ، يذكر أمثلة مادية على عدم انسانية الانسان مع الانسان، فهو يحاول ان يعرض للسخرية كل صور الظلم والفساد والاستغلال والرشوة ، والنفاق والقهر والكراهة والجشع . وهو يحاول اغراق الظلم في طوفان التهكم . ويفصل الطلاء الذهبى السطحى للعصر الذهبى . ويفضح الدمامة العارية للساسة والمستغلين الذين يكتنزون اللحم من مصائب رفاقهم ، ويمزق خدع الطفولة والباطرة ، فاذا هم تحتها مجرد تلفيقات جوفاء . وكان الأمريكى من كونكتيكت والملك ارثر مسافرين في ثياب تنكرية فظن انهما اثنان من اجلاف الريف وبيعا بيع الرقيق . فيقدر ثمن الأمريكى من كونكتيكت بثمانين دولارا أما الملك فلا يساوى أكثر من سبعة دولارات بحال من الأحوال .



والملوك فى رأى مارك توين ، ترف خطر. واذا كان على الأمة أن تعبد شيئاً فليكن أسيرة مالكة من القطط. وستكون أخلاق هذه القطط عموماً أسوأ من أخلاق الملك العادى بكثير، وليلاحظ.. أنها لم تشنق أحداً ولم تطح برأس أحد ، ولم تسجن أحداً ولم تقارف القسوة أو الظلم من أى نوع . لذلك فهى أجدر بعميق الحب والتبجيل من الملك العادى من البشر. وسرعان ما تتعلق أبصار العالم المفتصب بهذه الأسيرة الرحيمة الوداعة ، ويبدأ الملوك القصابون فى الاختفاء .

ولم يكن مارك توين يهاجم الحكام السلميين ، وإنما هو يهاجم الملوك القصابين، فهؤلاء الأبطال الطفافة السيئو الخلق فى الأسيرة البشرية ، لم تكفهم رقعة الأرض التى خصصت لهم ، فاصطخبوا فى طلب ما يزيد عن نصيبهم، بل ولم يقنعوا بذلك .

وكان مارك توين يمقت روح العدوان الحربى أكثر مما يمقت أى شىء آخر فى العالم ، ولقد خبر فى صفه من الشجار ما شفاه منه بقية حياته .

قال ذات مرة إذا شاء محب للشجار أن يحاربك فاخلع سترتك فى بطء وتعمد . وانظر فى عينيه مباشرة، ثم فى بطء وتعمد أيضاً اخلع صدرتك ، ثم شمر عن ساعدك وواصل نظرك فى عينيه . فإذا لم يكن خصمك قد فر من وجهك حتى ذلك الوقت فخير لك أنت أن تفر من وجهه .

وليس معنى ذلك أن مارك توين كان من أنصار التهدة . أو أنه كان جباناً . فأمره على تقيض ذلك . إذ ماكادت الحرب الأهلية تنشب حتى تطوع فى الجيش

الاتحادى وظل فى الخدمة حتى اُخلى منها مشرفا . فهو لا يخالف الحرب الشريفة لكنه يفزع من اللصوصية الفسادة . وهو يقول ( ان تاريخ البشر زاهر بتلك اللصوصية الفادرة التى تنتحل دائما ثوب الهدف النبيل ان قصة البشر لا تعدو سردا موجزا لقصة سفك دماء البشر) فقد بدأ بسلسلة طويلة من الحروب المجهولة ، اغتيالات ومذابح . ثم جاءت الحروب الاثورية ثم كانت الحروب المصرية واليونانية والرومانية وما فيها من اغراق رهيب للأرض بالدماء .. وكان لدينا دائما حروب ، ومزيد من الحروب .. فى كل أرجاء أوروبا وكل أرجاء العالم .. أحيانا لتحقيق صالح شخصى للأسر المالكة ، وأحيانا لسحق أمة ضعيفة ، ولكن لم يحدث قط ان بدأ أحد المعتدين حربا لأى هدف نظيف .. فان تاريخ الجنس خال من مثل هذه الحرب .

ولكن أعنف ما وجهه من اتهام الى وحشية العدوان، وهو أعنف ما كتبه أى كاتب أمريكى فى ذلك ، هو دعاء الجندى ، تلك المقطوعة الساخرة ، والدعاء الخيالى ، الذى يقدم صورة مادية للعقلية النابليونية ( أو لعسل مارك توين كان يدعوها الهتلرية لو عاش فى أيام هتلر) .

( ربنا أعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا ، فتصير جسامهم شرائح ملوثة بالدم وأعنا ربنا على ان نطفى حقولهم الباسمة بأشلاء قتلاهم الوطنيين ، وأعنا اللهم على ان نفرق قصف المدافع فى طوفان من صرخات جرحاهم وهم يتلوون الما ، وأعنا على تخريب بيوتهم المتواضعة بأعصار فيه نار ، وأعنا على حرمانهم المأوى ، فيهيمنون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق وسط الخراب الذى نزل بأرضهم المهجورة ، فى أسمال

تمزقت شر ممزق جائعين صادين ، تلفحهم نار الشمس  
صيفا ، والرياح الثلجية شتاء ، كسرى خاطر قد  
أضناهم العناء ، ضارعين اليك أن تأويهم فى القبر  
فتأباه عليهم . ورحمة بنا نحن عبادك أعصف اللهم  
بآمالهم واجعل حياتهم وبالا عليهم ، ومد اللهم فى رحلتهم  
المريرة ، وأثقل خطاهم ، وارو الطريق غدقا من دموعهم ،  
ولطخ الشلج الأبيض بالدماء التى تنزف من أقدامهم  
الجريحة ! اللهم أجب دعاءنا ، ولك المجد اليوم والى  
أبد الأبدين ، آمين ) .

## - ٦ -

كان مارك توين يمقت البغضاء . وكان هذا الشعور  
يشتد به أحيانا بحيث يكون عليه كما أكد ذلك ( ان  
أمسك بقلمى ، واسطر افكارى على الورق ، مخافة ان  
تضطرم النار فى داخلى ) فلقد كان مارك توين فى أوجه  
ينتمى الى جماعة الأنبياء لكنه - باعترافه - كان لايقدم  
للعالم دائما خیر ماعنده . فلقد كان ولعه بالترف بالفا ،  
وجوعه الى الشهرة جائحا بحيث لا يستطيع ان يقول  
كل ماعنده فى أى كتاب من كتبه الأولى . فكان يحاول  
ان يطفى الثورة التى تضطرم فى روحه بثوب مما يحترم  
الناس . اما جولته الثائرة الصريحة الواحدة الجادة ،  
حين حاول تطهير سياسة سان فرانسيسكو فقد أخرجته  
هو من عمله وبيته . فأيقن ألا جدوى من السباحة ضد  
التيار ، فلقد وجد ان التماس النجاح يضطر المرء الى  
أن يصل نفسه بمن فى يدهم مقاليد الأمور . وكان  
آنسون برلنجيم وزير أمريكا فى الصين قد نصحه يوما  
(بالا يكن لك شأن بصغار القوم ، عليك بالتسلى دائما)



ومكانت هذه النصيحة كما كتب البرت بيجلوبين هي  
( انجيل ) مارك توين الذى لم يغب قط عن ذاكرته .

وقضى مارك توين الشطر الأكبر من حياته وجل عنايته  
منصرف الى التسلق فلم يكن ينشط لتأليف كتاب  
(مالم يكن وراءه مال ، ومال كثير) اذا استخدمنا قوله .  
لذلك كان يحذف - أو يدع أصدقاءه يحذفون - كثيرا  
من مرارة الكتب التى كان يؤلفها فى فترة (التسلق) فلن  
قراءه لن يفهموا ، ولن يحسوا جزاء التفكير الجدى .  
كتب فى بودنهد ولسن يقول « ليست السخرية مما  
يلائم هؤلاء الناس . فان بصرهم العقلى ليس مهيأ  
لادراكها » لذلك قدم للناس سلسلة من الكتب وطائفة  
من القصص الصغيرة . يوجد فيها أقل ما يمكن من  
المرارة ممزوجة بأكثر ما يمكن من الحلاوة . وكان ذوقه  
الشخصى أسمى كثيرا من ذوق كثير من قرائه . وكان  
يدهش للعقلية الساذجة التى تستطيع الضحك من  
قصة باردة مثل The Jumping Frog بل ولم يكن فخورا  
بشكل خاص بقصة Huckleberry Finn أحسن قصصه  
التي تنتمى الى هذه المجموعة . وكان يتفق مع هنرى  
جيمس على ان هذه القصص انما تستميل العقول  
الأولية . وكان يكتب لجمهور كبير لانه كان أكثر اهتماما  
بماله منه بفنه . وكان يخجل لجمهوره الضخم . (ان  
لديكم ادراكا للفكاهة كما تدركها الخيول لأكثر، وجهرتكم  
لديها هذا الادراك ، وتلك الجمهرة ترى الجانب المضحك  
من آلاف الأشياء التافهة الرخيصة . مثل المفارقات  
البعيدة ، وخاصة تلك الفرائب والسخافات التى تثير  
ضحك الخيل ) .

انه ليخجل لجمهوره الضخم غير الناقد ، ويخجل

لنفسه اذ أعوزته الشجاعة على الكتابة لقراء اصفر  
عددا وأدق بصرا . قال مرة ( انك لترى ان وراء مظهرى  
المستبشر ، روحا غاضبة منى لاتألونى زراية ) .

ويعترف بأن بريق الذهب قد استهواه وكان بلوغه  
نباهة الذكر والثراء على غير انتظار أشبه بقصة خيالية  
من ألف ليلة ، ولم يستطع قط ان يبرا من العجب  
لها . لقد اشتغل صبي طابع ، قربان قارب بخارى فى  
المسيبى ، فمنقبا فاشلا عن الذهب فى نقادا ، فمراسلا  
مغمورا فى سان فرانسيسكو . ثم يجد نفسه على حين  
فجأة مؤلفا غنيا لكتاب شهير فلقد ربح ٣٠٠٠٠ دولار  
من قصة « الأبرياء فى الخارج » وصهرا لأحد اصحاب  
الملايين من ملوك الفحم فأسكره النجاح وأدار رأسه  
دوارا كليا . فأخذت آماله تشرئب الى بعيد الأهداف .  
شأنه فى ذلك شأن الكثير من معاصريه . لقد أصبح  
الأدب فى نظره صناعة . وكان حريصا على أن يثبت  
لصهره مستر روجرز ان تأليف الكتب يدر من المال  
مثلا تدر تجارة الفحم وما عليك الا ان تقدم للجمهور  
مايريد .

وهكذا باع الضحك بالذهب ، واستحال الذهب فى  
يده رمادا ، لأنه كان شخصية مزدوجة : جسم صمويل  
كليمنز المنقب عن المال وروح مارك توين المحبة للحرية .  
وكان من عاداته دائما ان يكتب فى الأمور التى يخاطب  
فيها الناس كتابين احدهما يعبر فيه عن آرائه الشخصية  
فلا ينشره . والثانى يعبر فيه عن آراء الناس ، وهذا  
هو الذى يبعث به الى الناشر . وكن يفسر ذلك بقوله :  
ان على أن أكفيل رزق عائلة ، ولا يسعنى أن أصرح  
بالحقيقة كاملة . ولكنه كان على تردد راثدا من الناحية

العقلية ان لم يكن من الناحية الخلقية . وقد تجلت  
روحه الخلاقة على استحياء في Tom Sawyer وفي  
The Prince وفي Caption Stormfield's Visit to Hedven  
وفي Pudd'n head Wilson وفي A connecicut Yankee  
Huckleberry Finn وفي The Man that corrupted Hadleyberg

وجاءت متتالية كأنها أيام الصيف ، مليئة بضوء  
الشمس والضحك ولكن يقطعها من آن لآخر قصف  
الرعد الساخر من بعيد . وكانت هذه الروح السبابة  
نفسها هي ماتكلم أخيراً دون خوف في (الفريب الغامض)  
هذا الكتاب الذي لم ينشر الا بعد وفاته نزولاً على  
نصيحة زوجته ، قد عرض الحقيقة آخر الأمر كما  
رآها . فانه بعد أن استهدف بلوغ قوس قزح فلم يجده  
غير سراب . وبعد اذ جمع مالا كثيراً وبدده ، وخبر  
( الاكتظاظ المؤسف ) بالأصدقاء والشهرة ، وبعد ان  
ذاق نعمة الحب ، ومرارة فقد من أحب ، قد جمع  
خيوط حكمته وعذابه ونسج منها قصة من عيون  
القصص (هي الفريب الغامض) The Mysterious Stranger

وكانت فكرة هذا الكتاب قد نمت في عقله منذ سنوات  
كثيرة ( لقد عذمت منذ زمن طويل على ان أولف كتاباً  
كهذا بلا تحفظ . كتاباً لا يحفل بمشاعر أحد ، أو  
بقصده ، أو رأيه أو معتقداته ، أو آماله أو أوهامه  
أو انخداعاته . كتاباً يقول قائلي : صادرا من قلبي  
مباشرة في أبسط لغة ، متحلاً من كل القيود على اختلاف  
أنواعها ) هذا ما قاله لوليم دين هولز .

كان ( الفريب الغامض ) فريداً في كتب مارك توين  
في ان المؤلف قد كتب فيه كل ما عنده ، ولعله من الناحية



الفنية يقل شأنًا عن (هكلبرى فن) بيد أنه أروع تواليفه من الناحية الفلسفية ، وهو في اعتقادنا كتابه الوحيد الذى يرفعه الى مصاف كبار أصحاب التهكم والسخرية، سرفنتس ، وسويفت ، وفولتير ، واناتول فرانس . و ( الغريب القامض ) هو قصة زيارة الشيطان لاسلدورف وهى بلدة كانت بالنمسا فى العصور الوسطى. واسلدورف عالم مصغر، وسكانها قطاع من الجنس البشرى . وليس هم الشيطان فى هذه القصة مساعدة البشر أو افسادهم ، وانما هو يرقب صراعنا من حين الى حين ، كأنه المتفرج المستمتع ، حين لا يشغله عن ذلك ما هو خير منه . وحين اقبل على ( اسلدورف ) عرف ثلاثة اطفال بنفسه - فنحن جميعا فى نظر الشيطان اطفال - ومكنهم فى خلال فترة قصيرة من أن يروا الحياة كما يراها هو فى سامى حكمته . فبين ثم اننا قد اصرنا الحديقة الجميلة التى ولدنا فيها الى كومة من القاذورات.

وهذا قسيس مسن هو الأب بطرس يوقف عن عمله بالكنيسة ، لأنه جرؤ على تأكيد القول بأن الله كله رحمة وخير . فقد تساءل أهل اسلدورف : ماذا سيبقى من تقوى الجحيم اذا سمح لمثل هذا الرجل بالبقاء واعظا فى الكنيسة . وتلف حكام اسلدورف على قيادة الحملة الشعبية لاضطهاد الأب بطرس . فقد استنتج الحكام ان القسيس الذى يقول بأن الله لا يعذب المذنبين عذابا أبديا ، لابد انه شخصا من المذنبين . ولذلك اتهموا الأب بطرس بالسرقة وحبسه فى زنزانة فى انتظار المحاكمة .

فراع مشهد تعذيب الأب بطرس الصبيان الثلاثة الذين أحبوه ، ولكن الشيطان يطمئنهم الى ان كل شيء

## صائر الى الخير

وبينما القس في انتظار المحاكمة . كان الشيطان يسلى صبيين منهم بالنظر الى قلب الاشياء وصميمها، ولم يكن المنظر مبهجا . أما الصبي الثالث فان الشيطان قد أعد له تسليّة كريمة من نوع آخر ، فلقد اغرقه . ويفسر ذلك لرفيقى الصبي الفريق وقد تصدع قلباهما فيقول : ان هذا أسعد حظ يمكن أن يلقاه أى كائن حي .

ويقدم الأب بطرس للمحاكمة آخر الأمر . ولا يكاد يبدو ان أمامه فرصة للتبرئة ، لأن أصحاب الأمر قد أحكموا اثبات التهمة عليه . ولكن الشيطان يقول للصبيين : لاتراعوا فكل شيء صائر الى الخير .

ولقد وفى الشيطان بوعده حقا . فهو لم يقنع باثبات براءة القس المسن الوادع . بل زاد على ذلك انه كفل له السعادة القصوى بقية حياته . وكانت الطريقة التى جلب بها السعادة للقس بطرس غاية فى البساطة . فقد حمل للقس المسن فى زنزانته نبأ كاذبا عن الحكم الذى صدر فى قضيته : ( انتهت المحاكمة وستظل بقية عمرك ماطخا بعار السرقة ) ولا يسمع الرجل المسن ذلك حتى يفقد رشده ويفقد سعيدا كالطير ، ويستقصد منذ ذلك الحين انه امبراطور العالم ، فينعم بمجد الحاكم المطلق دون ان يحمل شيئا من همومه . فيشده صاحب القس بطرس من هول الموقف .

ولكن الشيطان يعيد الثقة الى نفسيهما بقوله : ان الجنون هو أقصى هبة - بعد الموت - يستطيع الآلهة ان يمنحوها الانسان . فليس من طريقة يكفلون بها للانسان سعادة مطلقة الا الجنون المطبق . ذلك بأن

العالم كما يقول مارك توين في الختام هو دارة الجنون ،  
وما الحياة الا كابوس مجنون بين النوم والنوم » ومن  
عجب انك لم تحدثس ان عالمك وما فيه ، هو مجرد أحلام  
ورؤى وخيال . مع ان سيرته تنبىء بصريح الخيال . .  
شأنه في ذلك كشأن الأحلام ، انه يستطيع بسهولة خلق  
الأبناء الخيرين والأشرار ، فيؤثر صنع الأشرار، ويسعه  
ان يكفل السعادة لكل واحد منهم ، فلا يكفل السعادة  
لأحد منهم ، وجعلهم يسرفون في تقدير حياتهم المريرة  
ومع ذلك فقد اختصرها في شح ومنح ملائكته سعادة  
أبدية دون جهد ، وطالب أبناءه الآخرين ان يصيبوها  
بجهدهم ، ووهب ملائكته حياة خلت من الألم ، وأنعس  
أبناءه الآخرين بألوان الشقوة والمرض !لعلى ، والجسمانى .  
وتحدث عن العدل وأنشأ جهنم . . وتحدث عن الرحمة  
وأنشأ جهنم . . وتحدث عن الحكم الذهبى والفقراء،  
واجزال الثواب ، وأنشأ جهنم . . وخلق الانسان لم  
يستشره في ذلك ، ثم حاول ان يحمل الانسان مسئولية  
عمل الانسان » ان ما أظهرتكم عليه هو الحق . ليس  
ثمة كون ولا جنس بشرى ولا حياة أرضية ولا علوية .  
كل هذا مجرد حلم . حلم غريب أحقق . ليس من كائن  
الا أنت ، وما أنت الا فكرة ، فكرة حائرة لاجدوى منها  
وما مأوى لها ، تنتقل يائسة بين القرون الخاوية .

وبعد اذ عبر آخر الأمر عما اعتقده باخلاص، اجتاز  
الساخر الحزين العظيم حدود الحياة ، الى . . . من  
بدري ؟ ربما الى حلم أجمل وأصدق .



## توماس هاردى

( ١٨٤٠ - ١٩٢٨ )

### - ١ -

ينسب الى ارنولد بنيت انه قال ذات مرة لهيو والبول:  
« أن مصيرك بتحدد يا عزيزى منذ ولادتك » ، وهذه الحقيقة  
العالمية التى قيلت فى معرض الفكاهة تتمثل كل التمثل فى  
حياة توماس هاردى .

فقد ولد هاردى ذا جسم ضعيف وعقل قوى وروح  
دافقة الشعور . فكان منذ بدايته الأولى مقضيا عليه  
بحياة الادب . كان فى طفولته يحب ان يرقب الديدان  
فى المستنقعات الصغيرة قريبا من منزل أبيه فى دورستشير  
(تلك المذاوقات الصغيرة القليلة الحول التى تمضى وقتها  
فى لهو مجنون صاعدة هابطة فى الماء اللزج الفاتر  
بالمستنقع الجاف) ، وطالما تساءل ما معنى كل هذا .  
فاذا علت به السن اذار التفاتة الى ديدان البشر . وهى  
اكبر من صاحبته ، لكنها تستوى معها فى العجز فهى  
تتمرغ وتتكاثر وتموت فى المستنقعات الصغيرة بالعالم .  
وقرر ان يجلس على جانب الطريق وأن ينفق حياته  
جاهدا فى الكشف عن معنى كل هذا .

### - ٢ -

كان عند ميلاده ( ٢ يونية ١٨٤٠ ) شديد الوهن بحيث

صرح الطبيب بأنه ميت . ولكن بفضل ممرضة الأسرة  
التي صفعته صفعا عنيفا ، أعيد إلى حياة قدر لها أن  
تستمر نحو تسعين عاما .

كان أبوه مقاول بناء ، سمح لابنه الصغير ذا الوجه  
العجوز أن يتجول في المرج بدلا من أن يذهب إلى المدرسة  
( دعه يعب من ضوء الشمس عبا . فانه يستطيع ان  
يمتص تعليمه فيما بعد ) . كان تعليم الطفل الأول اذن  
في الهواء الطلق فطالع كتب الجداول الجارية . وأحاط  
علما بالأحياء عن طريق الحواس الخمس جميعا ، وعن  
طريق حاسة سادسة . . . عطف شامل وسع كل شيء ،  
فهو يهتز اذا رأى أو سمع الحيوانات أو الطيور أو  
الأشجار . كتب فيما بعد ( تعلمت في طفولتي ان لكل  
جنس من الشجر صوته ، كما ان له ملامحه ، فاذا  
هب النسيم تنهد شجر الشربين وان ، تستبين ذلك  
في وضوح كما تستبين تمايله وترنحه . وشرابه الراعى  
تصفر وهى تطرعمع نفسها، وشجرة لسان العصافير  
تتز بين اهتزازاتها ، وللازان حفيف بينا افنانه المنبسطة  
تعلو وتهبط ) .

شعر انه والطبيعة كلها وحدة . . تصله قرابة دم  
بالرياح والسحب والفراشة والنملة والعصفور  
والسنبجاب والحمل ولطالما حاول في مخيلته الحية ان  
يتقمص شخصية هذه المخلوقات الخارجة عنه . وجعل  
من نفسه خروفا ذات مرة ونزل يسعى على أطرافه  
الأربعة في حقل ، وأخذ يأكل العشب . فاذا رفع بصره  
استولى عليه الارتباك - كما قال فيما بعد - اذ رأى  
الدهشة في أعين الخراف الأخرى من منظر زميلهم  
الجديد في القطيع .

فلما بلغ عامه التاسع كان قلبه قد اتسق تماما مع قلب الطبيعة . وبدأ تعليمه المنظم . فبعث به أبوه الى أكاديمية ( لاس ) للشبان . وهي مدرسة حرة تبعد ثلاثة أميال عن كوخ هاردى وفي كل يوم فى ذهابه الى المدرسة وعودته منها كان يقف ليأخذ فى حديث ودى مع رفاقه فى اللعب ، تلك الخلائق البرية فى مرج (اجدن) لكنه ذو ولع خاص بمشاهدة وجوه البشر وكان عليه اذا اقترب من دورستشير وهي المدينة التى بها مدرسته ان يعبر قنطرة من الحجر وكان يحب دائما ان يقف وسط القنطرة ويدرس من يمرون عليها ( ان فى وجوه البشر لكثيرا من القصص الممتع ) .

وكان فى المدرسة اذئال تلميذ يحمل اكبر رأس فى فصله . وذهل مدرسه من سرعة استيعابه للعلوم . فلما تخرج فى السادسة عشرة كان على أتم علم بالآداب اللاتينية والفرنسية والانجليزية وخاصة مسرحيات شكسبير فهو يكاد يحفظها عن ظهر قلب .

وكان به شوق شديد الى الالتحاق بالكلية ، هذا الهادئ الشفوف بالدرس الحساس ، جود المغمور (١) الضئيل . ولكن أباه لم يكن يحتمل هذا الترف . فقد آن للصبي ان يصيب رزقه . فيجب ان يعلم مهنة او حرفة . تكون من السهولة بحيث لا ترهق جسمه الواهن الضعيف . ترى هل يحترف الموسيقى ؟ ان تومى عازف لابأس به وقد تعلم العزف على ابيه لكن العزف هذا لا يدر عليه مالا فانه كثيرا ما عازف مع ابيه فى حفلات

Jude the Obscure

(١) اشارة الى احدى قصصه

وهي آخر ما كتب من قصص : وشخصية جود فيها قريبة الشبه بشخصية هاردى .



الزقاف بالريف . لكن كيف يدور بخلد عازف يحترم نفسه من (دورستشير) أن يتقاضى أجرا على هذه الخدمة الودية فهل من شيء آخر يستطيع محاولته ؟ أيعمل في الكنيسة ؟ ولكن تقف دون ذلك عقبتان . . انه فقير، وانه ضئيل تقتحمه العين اقتحاما فلم يبق غير مهنة واحدة اذن . . هي الهندسة . فالأب بناء مجيد فليكن الابن رساما مجيدا للأبنية .

وهكذا عهد بتدريب توماس هاردي الى جون هكس وهو مهندس يتخذ له مكتبا في المدينة المجاورة في دورستشير .

لكن هاردي ليس شديد الكلف برسم اللوحات الزرقاء، ويرى في العمل آلية لا يحتملها فهو فنان لا عالم . فكان على أمانته لعمله ينفق كل فراغه في الدراسة والأحلام . كان يصحو من نومه الساعة الخامسة صباحا وأحيانا يصحو في الرابعة وينفق ساعتين يعلم نفسه فيهما قراءة اللغة اليونانية وما هي الا ثلاثة أعوام حتى استطاع ان يتحدث في طلاقة مع اسكلس وهوميروس وكذلك مع كتاب العهد الجديد .

وظل محافظا طيلة هذا الوقت على مودته مع لفته الأثرية ، أجرومية الطبيعة وكان يترجم هذه الأجرومية الى موسيقى انجليزية لقد عرف انه شاعر « بدأت أكتب الشعر الآن لم أجد عنه منصرفا ، فان أمرا قد صدر الى بذلك من أعماق نفسي » .

أوامر من الداخل لكن لاتشجيع من الخارج « كنت أبعث بقصائدي فتعود الى لا تتخلف منها واحدة . وظلت أعواما طويلة لايمسها أي ناشر » وكان هاردي

لا يحسن البيع . فهو أبعد الناس عن المزاومة والمدافعة . وظل حتى آخر أيامه لم يحذق فن الإعلان عن نفسه . قال سير جيمس م . باري ذات مرة « مهما يكن الملاك الذى يخرس أبواب الجنة فان عليه ان يدفع بتوماس هاردى الى داخل الجنة دفعا » أما الآن فليس من حارس لأبواب جنة النشر يرغب فى دفعه الى داخلها دفعا ، أو حتى فى مجرد دعوته ، وظل أعواما يقدم درره ، لا الى الخنازير ، بل الى ناشرين راوها حبات من الطين .

والحق ان كثيرا من قصائد هاردى الأولى وبعض قصائده التى تلتها كذلك كانت تحوى نسبة عظمى من الطين . ولم يكن هاردى شاعرا كبيرا ، فقد كانت لديه عناصر العبقرية الشعرية . لديه الموسيقى والخيال والعاطفة ، وتذوق العبارة المعبرة والفكرة المركزة والسحر الذى تتلأأ به الأحرف كأنها النجوم . كل شيء كان حاضرا لديه خلا النار ، وكان هاردى يعرف هذا النقص فى عناصر كفايته فهو يقول « أخشى الا اصير اديبا يوما ما لقد كتب على أن أرسم اللوحات الزرقاء مدى الحياة » .

وكذلك سافر الى لندن مهندسا مكتملا وشاعرا هاويا . وعين فى مكتب أحد مهندسى الكنائس يدعى ارثر بلومفيلد وظل يعمل هنالك خمس سنوات « ذلك الرجل الملتحى ، الشاحب الهادئ ، الضئيل ، الذى يتكلم قليلا ويستوعب كثيرا وهو شخص لا بأس به ولد لأبوين بالفى الفقر غير انه فنان مكتمل فى نحو السادسة والعشرين . وهو يهمل صدريته شيئا ما ، وينهش الكتب دوبا كأنه الدودة . وقد استوعب شكسبير حتى الثمالة من

الملاحظات بأسفل الصفحات ، ولن ينجح مطلقا بالمعنى الدنيوى . اذ يعوزه الجد والنشاط الضرورىان لكسب معرفة الناس واستغلالهم .

هذه الصورة التى رسمها هاردى لادوارد سبرنجروف أحد أشخاصه فى *Desperate Remedies* تمثله أصدق تمثيل فى أواخر الحلقة الثالثة ، ذلك الشاب الريفى الذى لا يأسر القلب ، والذى لا بد له من التحوط حذار ان يتحدث بلهجة دور ستشير هو رسام مغمور يبدو ان مستقبله لا يبشر بالنجاح .

ومع ذلك فان هذا الرسام الشاب غير المأمول الغد يقابل ويتصبى ويتزوج من فتاة تسبقه فى المكانة الاجتماعية فقد كان منوطا به اصلاح كنيسة سانت جوليثوت فى كورنول . وهى مهمة قد ندبه للقيام بها صاحب المكتب الذى يعمل به واثناء عمله تعرف الى الأنسة ايما جيفورد أخت زوج أسقف كنيسة سانت جوليثوت وكانت الأنسة جيفورد سليلة محامين وقسيس ورؤساء شمامسة تحذق ركوب الخيل والفناء وتعرف النقش معرفة لا بأس بها وهى من المتعاليين ذوى المعارف العامة . « فماذا اغراها بى وأنا ابن بناء فقير؟ انى لا أعلم » ولكنه استطاع على نحو ما ان يطلب يدها فتنسى معطفه الرث ولحيته الشعثاء فتنزلت بقولها (نعم) وهكذا « عدت من ليونيس بكورنول وفى عيني بريق سحرى » .

ويقبل شهر غسل قصير هاذر وحياة زوجية طويلة يسودها الخلاف فان أحدهما لم يفهم صاحبه قط فعاشا على اختلاف فى النزعات الجسمية والاجتماعية . فهى تحب ركوب الجياد ويؤثر هو المشى ولم يتعلم قط



ركوب الخيل ولم يستطيعا الانسجام طول حياتهما  
ولكن هاردي لا يشكو قط بل يحاول ان يهيئ لزوجته  
منزلا مريحا وان يقدم اليها على الأقل أيسر الضرورات  
لمن في مكانتها وكان يعول على الهندسة في كسب عيشه  
فزاد ركونه الى احتراف الأدب وأغرته اما بالتحول عن  
الشعر الى النثر « ولم أرد قط ان اكتب قصصا نثرية  
ولكنني اضطررت الى صنعائها فالظروف ( وهو يشير  
تجملا الى اما ) هي التي حملتني على كتابتها » .

وهكذا كان الفضل في انشاء طائفة من أروع قصص  
الغرام راجعا الى الحاف امرأة لا تحب زوجها .

وتبنى قصص هاردي في معظمها على نظرية الحب  
الموجه الى غير محب ويتحدث (كرستوفر جوليان) عن  
هذه النظرية *The Hand of Ethelberta* مداعبا

فيقول « لقد سمعت بالحب غير المتبادل وبالحب المتبادل،  
وبالحب من كل نوع . غير ان هذه أول مرة أسمع فيها  
بالحب المسلسل . انت تحبينني ، انا أحب ايثل برتا ،  
وهي تحب الله أعلم من » . فالحياة كلها اذن مسلاة من  
الأخطاء تدور في مملكة الغرام فكل عشيق يحب شخصا  
آخر غير عاشقه وكارثة العشاق جميعا انه لا يوجد  
منهما اثنان يتبادلان الغرام .

وكان من اثر هذا الموقف الساخر القائم الذي وقفه  
هاردي من العاطفة البشرية ان وجد طريقه وعرا مع  
الناشرين والناقدين أول الأمر فكانت شهرته تنمو في  
بطء . وكان لابد من ان ينشر عدة قصص طبع بعضها  
من ماله الخاص حتى ينتبه العالم لوجود هذه الرقة  
الكبرى التي نمت من الحزن العظيم . فان قصصه  
لتسودها نفمتان هما السخرية والرثاء : سخرية السماء

ورثاء الانسان . ولقد عجز بعض النقاد حتى في الأزمنة الحديثة - عن تبين هذا الجانب المزدوج من فلسفة هاردى فيقول أحد المعقبين المحدثين « ان هاردى لا يرى غير الجانب الدميم من الحياة » .

ويقول ناقد آخر يعدله تعصبا « لا بد ان جدا من اجداد هاردى قد تزوج صفصافة ذات شجون » على ان جل النقاد اليوم قد صاروا ينبئون في هاردى نوعا جديدا من الجمال ، جمالا مستسلما ذا نغمة مؤسسية . ويتبينون في الوقت ذاته جمالا ايجابيا يضوع رحمة ورقة .

جمال جديد وفلسفة جديدة . فلسفة لا هي تفاؤلية ولا تشاؤمية ، بل هي بين بين ويسمياها هاردى نفسه فلسفة تحسينية . فهي جهد لتحسين العالم الذى يحوى قدرا من الشر غير يسير ، غير انه يستطيع ان يحوى قدرا من الخير كبيرا : « فواجب الناس ان يعلموا بنى جنسهم كيف يواجهون ذلك الشقاء الذى كتب عليهم » .

ونظرية التراحم التحسينية تلك ، نظرية العجز المتبادل الذى انبتته الشقوة المتبادلة ، هذه النظرية كانت تنمو تدريجا في فلسفة توماس هاردى . ففي قصصه الاولى كان يلوح بقبضته في وجه السماء التى لا تحفل اى احتفال بمن خلقت من الناس . وبعد ذلك نقل لومه من السماء الى الانسان . ولعله كان يردد مع شكسبير قوله « ان الخطأ يابروتس العزيز ليس في حظوظنا ، بل هو في انفسنا ، لاننا اذلة » انه ليس القدر ولكنه ضعفك انت هو ما يقف دونك .. عجزك عن معرفة باب تدلف منه الحكمة اليك بدل ان يدلف الملل .. ثم ان

الشر ليس من السماء ، ولا من غباء الأفراد ، بل انها قسوة الانسان في حشد الناس ، اى قسوة المجتمع .. هي المسئولة عن معظم شقائنا البشرى . فكان كلما علت به السن ازداد شجاره مع المجتمع مرارة لانه يوقع بالفرد ظلما منظما ، وقد كتب في عام ١٩٢٨ مقطوعة شعرية في عيد الميلاد توجز ما يشعر به من حنق على تلك الوحشية المستعصية ، وحشية ذلك القطيع البشرى . « قيسل السلام في الأرض ، فترنمنا بهذه العبارة . واستأجرنا مليون قسيس ليحبوا لنا السلام . وبعد ألفى عام من الصلاة لم نصب السلام بل الغار السام » .

كان هاردى يستثيره قتل الجسوم البشرية ، وازهاق الأرواح البشرية ، وطالما عاود هذا الموضوع في قصصه الأخيرة . وكان يقول ان العقاب الذى تفرضه الجماعة جزاء على الخطأ الفردى يتجاوز حدود الرحمة الانسانية . والعدل الانسانى ، وتتمثل هذه النظرية وهى الفكرة الرئيسية في فلسفته قصة ( تس سليلة دربرفيل ) .

كانت تس ضحية لقانون خلقى صارم وتقليدا اجتماعى عنيف ، فان أباهما الفاسق الأفاق جون دربرفيل لا يعلم بأنه من سلالة أسرة دربرفيل النبيلة حتى يختال زهوا . وتأخذ زوجته تحلم بزيجة براقة تليق بابنتها تس ، لذا يلح الأبوان عليها لتعمل مربية للدواجن فى مزرعة السيدة غير الدمثة ( ليدى دربرفيل ) .

وهناك تقابل تس ولد السيدة العجوز وكان يدعى (الك) دربرفيل .. وكان وغدا وسيما لاوازع لديه ولا ضمير يردعه ، فكان غزل وجيز وخيبة أمل وطفل .. وسرعان ما يموت الطفل وتعود تس الى أهلها .



ومضى بعض الوقت قبل ان تجد الشجاعة على مواجهة العالم من جديد ولكنها تقبل آخر الأمر وظيفة حالبة بمزرعة (تالبوذي) وهناك تتعرف الى (انجيل كلير) وهو ابن قسيس عجوز، وكان انجيل قد تحول من رعاية الأرواح الى فلاحه الأرض .. الأمر الذي ملأ أباه أسفاً. وتوثقت الصلة بين الاثنين ، فاذا أعلن انجيل حبه لم تجرؤ تس على اظهاره على حياتها الماضية . فان حلمها لأجل من أن يحطمه ذلك الوحش الدميم ، التقليد الاجتماعي .

ويقرب يوم الزفاف ، وتكتب في لحظة من لحظات اليأس الصادق خطاب اعتراف مطولا وتقذف به تحت الباب . ولكن يدها تقودها يد القدر ذات السر الغامض، فينزلق الخطاب تحت البساط وتهتدي قبل الزفاف مباشرة الى الخطاب وتمزقه ، ان شجاعتها على تحمل العقاب لأضعف من ظمئها الى الحب .

فيتزوجان وفي عودتهما من الكنيسة يسمعان نعيق غراب رمزا على انكار المجتمع . ياله من صوت جاء في غير وقته . غراب ينطق بعد الظهر، ياله من فال سيء.. وتقيم تس وانجيل في منزل ريفي شاعري عتيق. وهناك يعترف انجيل بجريمتة الوحيدة فقد قضى يومين ماجنين مع امرأة حمراء اللون ، وطلب الى زوجته الصفح فتسارع الى الصفح عنه ، ثم تروي هي قصة خطيئتها ولكن انجيل كلير يعوزه ما لديهما من استعداد للصفح . انه المستوى الثنائي للمجتمع .. ان المرأة يجب الا تخطيء .

ويحدث الانفصال وتعود تس الى أهلها فتأخذ أمها

الأمر في يسر ولكن جراحا بالغة قد أصابت كبرياء أبيها الدربرفيل السكير . فقد عد الأمر خطيئة منها لا تفتقر .

وتجد تس عملا في المزارع صيفا . وتخصص جزءا كبيرا من رزقها لاعانة أبويها . فاذا تقدم الشتاء فقدت معظم عملها . عمل قليل الأجر ، قدرشاق تعقبه فترات طويلة من الجوع واليأس فقررت آخر الأمر ان تقوم بمحاولة يائسة واحدة لترى أبوى انجيل فلمها تحيط ببعض أخباره وتكدح في سيرها أميالا كثيرة خلال المطر والثلج ولكنها تجد دار الراعى خاوية .

فتعود ادراجها وتقضى أياما أخرى طوالا يعضبها الجوع ، ويجثم عليها كابوس الذلة التي لا أمل لها في الفرار منها . ان المجتمع يجب ان ينال منها ضربيته .

وكانت تمر يوما بأحد مخازن الحبوب فسمعت صوتا صخابا لمتجول يصيح . انه لصوت تعرفه فتنظر في داخل المخزن فتري فيه ( الك دربرفيل ) ويتوسل اليها (الك) ان تعود معه فترفض اول الأمر ولكن فقر أمها بعد موت أبيها .. يضطرها الى الاذعان آخر الأمر .

فتمنح جسمها (اللك) ، ولكن قلبها لايزال في تجواله بحثا عن انجيل كلير . وكان هو أيضا وقتذاك يبحث عن تس وهو تعس مريض قد خفت غضبه القديم ولم يخلف في مكانه غير شوق عميق الى عروسه .

ويجدها في نزل حديث الطراز .. امرأة قد سقطت ان القدر الذي لا يرق ولا يرحم كما يتمثل في العرف الاجتماعي .. قد عقد ظروف حياتيهما بحيث يعجزهما

عن استئناف ما كان بينهما . فيأخذ انجيل كلير في السير الى بلدته .

وتلحق به تس في بعض ضواحي المدينة وتقول (لقد قتلتك .. انه يسبك فأديت بهذا مالك عندي من ذمم . ولم يكن من طريق لاستعادتك غير هذا ) .

ويخرجان من مشهد الآمهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . لقد جمع القسدر شملهما آخر الأمر . ولكنها لحظة واحدة من السخرية الفاجعة . فيقبض عليها فجر اليوم ، وتغرب آمالها مع مشرق الشمس ، وتحاكم تس وتثبت ادانتها . وما هي الا ثمانى دقائق تنبعث من الناقوس ، ثم يتلوى في الهواء شبح أسود . لقد وفّت تس بدينها للعرف الاجتماعى .

### - ٣ -

حينما نشرت ( تس سلية دربرفيل ) هوى النقاد على هاردى كأنهم سرب من العقبان . « انه كاتب دنىء لاريب » كذلك كان الحكم الاجتماعى عليه كما لخصه وليم جيمس في قوله : « من كان يستطيع ان يخلق بطلا بهذه الدناءة » وكان من المستحيل فى وسط هذه الضجة الخشنة من الاتهام ان تسمع تلك الأصوات القليلة الضعيفة التى تطرى الكاتب وتمتدحه . فقد أدركت هذه القلة انه قد وجد أخيراً أديب من الانجليز يجرؤ على الانتصار للرحمة ، والتوسع فى التسامح ، ونبذ النفاق الاجتماعى .

أما هاردى فلم يفعل للقادحين او المادحين غير ان هز كتفه وهو يقول ( مهما يكن من الأمر فقد أودعت هذا



## الكتاب خير مالى (

ووضع ( خير مالى ) فى قصته الهامة التالية ( جود المغمور (١) ) فاتار على نفسه بركانا من القدح والطمع . فهذا احد المعقبيين يقول فى صحيفة أمريكية « ان هاردى قد أخزى نقاده .. وصدم أصدقاءه ويبدو ان عقل مستر هاردى كان فى دركة الأسفل طوال كتابته هذه القصة ، فهو يخرج عن طريقه ليكون قدرا وقحا . وانى لم أتم قراءة هذه القصة حتى فتحت النافذة ليدخل اليها الهواء النقى » وقد وصف كاتب أمريكى قصة جود : بأنها من أوقع الكتب التى قرأها فى حياته . ورسمت مجلة بريطانية صورة هزلية لهاردى فصورته عملاقا ضخما غليظا يدوس وردة فى الوحل مشرا من الطين رذاذا يصيب كل من وقف على مقربة ، وحرقت محاضر بريطانى أمام الملأ كتاب جود المغمور .

وقد اضطر هاردى حين نشرت أجزاء من الكتاب فى إحدى المجلات الى بتر الأشخاص والمواقف ، فصارت هذه الأجزاء شيئا ميتا زالت معالمه . ومنذ ذلك الوقت صار الناشرون يرفضون قصصه ، أو يعيدون كتابتها لتلائم حساسية القراء . ويروى هاردى للسيدة وارثون محزوننا انه كان فى إحدى هذه القصص قد وصف نزهة بريئة قام بها البطل والبطلة يوم الأحد، فلما عرض القصة على ناشر اسكتلندى رد اليه القصة وطالب بنقل النزهة الى يوم آخر من أيام الأسبوع .

(١) ان قصة جود المغمور تمثل الصراع بين نفسين مرهفتين ، وبين العرف الاجتماعى الخشن القاهر الغلاب ، ولم يتزوج البطلان وان عاشا عيشة الأزواج وأنجبا الاطفال . أما زوجة البطل الشرعية ، التى لم يلبث أن طلقها وان ظلت تلاحقه ، فكانت من تاجرات الجسد اللاتى تخفن من الضمير والخلق والشعور (المترجم) .

فامتعض هاردي وقال : ( كنت أحسب انى اكتب  
لقراء اذكياء) لقد كانت قصصه اقوى من ان تحتملها  
اذواق القرن التاسع عشر المثقلة بالتقاليد . فقرر ان  
يعود الى اشعاره « فلن يؤذى شعري احدا لانه لن  
يقراه احد » .

فألف ونشر ثمانية مجلدات من الشعر الغنائى ،  
وملحمة عن حياة نابليون . دعاها العواهل . وقد استعاد  
تدريجاً ما فقدته من احترام . فانتهى امره بان صار  
لايقراه احد ويعجب به جميع الناس وانتقل فى وقار  
الى شيخوخة لم يزعجها غير فقد زوجته وكان ذلك  
صدمة قاسية برغم ما كان بينهما من خلافات . فالحياة  
العاصفة ذاتها لا تخلو من نكهة شهية .

واعقب العاصفة هدوء ، فقد تزوج ثانية وهو فى  
الرابعة والسبعين من امرأة فى الخامسة والثلاثين فاجتمع  
الخريف والربيع لأول مرة فى وفاق تام .

ومع ان زوجة هاردي الثانية كان من حقها ان تدعو  
نفسها شاعرة ، فقد قنعت بمجد الانتساب الى شاعر  
مجيد .

وذاذ غروب رائع وزين انهى يوم حياته الطويل ،  
وترك وراءه ذكرى جميلة نبيلة ، قال فيها جون ارفين :  
« لقد تعلمنا منك ان القلب المعتد بكرامته يستطيع  
اخضاع الاقدار القاسية لمشيئته . وقد كشفت فى كل  
ما كتبت عن روح الانسان يقتحم طريقه من خلال  
الهزائم » .

# فهرس

صفحة	
۷	جوستاف فلویر ... ..
۱۹	ناثانیال هوثورن ... ..
۳۵	ولیم ماکس ٹاکری ... ..
۵۲	شارلز دیکنز ... ..
۶۷	فیودور میخائیلوفتش دستویفسکی ... ..
۸۶	لیو تولستوی ... ..
۱۰۰	جی دی موباسان ... ..
۱۱۹	امیل زولا ... ..
۱۳۶	صمویل لانجهورن کلمنس ... ..
۱۵۵	توماس هاردی ... ..



كتاب الهلال القادم :

الاسلام  
والوحدة الوطنية

بقلم  
الدكتور محمد عمارة

---

يصد . ٥ فبراير سنة ١٩٧٩

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص ٠ ب رقم ٤٩٣  
السيد هاشم علي نجاس  
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS

7. Bishopstrove Road  
London S.E. 26  
ENGLAND

انجلترا :

---

M. Miguel Maccul Cury.  
B. 25 de Marac, 994  
Caixa Postal 7406,  
São Paulo. BRASIL

البرازيل :





## هذا الكتاب

يقول ( اندريه مورو ) فى مقال شهير له عن الانسان والفن .  
ان كتابة القصة تؤدى وظائف اجتماعية ونفسية هامة للكاتب والقارئ  
على السواء . فالكاتب لا يستطيع ان يجاوز حدود الصراحة التقليدية  
فيما يروييه من كلام منسوب الى نفسه . ولكنه يستطيع ذلك باضافة  
هذا الكلام وما ينطوى عليه من آراء الى احد شخصيات القصة .

وكذلك فانه يستحق احيانا من ان يزهو بنفسه ويدافع عن مواقفه  
الشخصية فى الحياة ، اذ لجأ الى طريق الأدب المباشر . . او المقالات  
او الاعترافات التى تدينه او تثنيه ، ولكنه يستطيع ان يختفى وراء بطل  
قصصى يتسم بكل الملامح التى أراد ان ينسبها الى نفسه .

وبهذا ينفس الكاتب عن نفسه فنيا على نحو يمتعته ويريجحه ، ويشترك  
معه قارئه فى كل هذا .

كما انه يخوض المغامرات والمآزق بقارئه ، دون ان يثقل على هذا  
القارئ بضرورة التصرف او اتخاذ موقف فى تلك المآزق . بل يجعله  
من خلال أهوالها أمنا مطمئنا حتى نهايتها .

هذا بعض الحرية التى يمنحها الروائي أو القصاص

أما كاتب الرواية أو القصة فهو يروى مغامراته  
المحصنة - وخواطره الحرة على أنها من حماقات غيره  
للكتاب والقارئ . . . . . ينعمان بها فى راحة ورحابه ، ويس  
مع ذلك آفاقا من الفكر والخيال لم تخطر على قلب بشر

وسيجد القارئ فى المجموعة التى بين يديه مصدا  
مورو . . . . . سيجد صيحة موباسان فى وجه الحرب ، و  
وجه السياسة ، وتحدى أشخاص هازدى للغول الاجته  
الكاتب والقارئ قد استمتعا بحرية غير محدودة ، فى  
محدود .

Bibliotheca Alexandrina



0678934

فرس

الجزء الثانى